عِندما تَكذبُ الحقيقة



آية رأفت

عصير الكتب

عندما تكذب الحقيقة!

رواية

آية رأفت

http://book-juice.com

رواية

عندما تكذب الحقيقة

المؤلفة : آية رأفت

نشر في: أغسطس 2018

تصميم غلاف: إسلام محمود

تقييم وتصحيح: أسماء محمد $ سلمى أشرف

تنسيق داخلي : عصير الكتب للنشر الالكتروني

عندما تكذب الحقيقة!

وتخدعنا الصدفة..

عندما يخوننا الأمل!

ويقتلنا الحب..

نصبح

بقايا أمل..

نصبح ضحايا صدفة!

وقتلى قدر..

وأسرى حب!

(0)

- أضرب الودع، وأشوف الكف!

هكذا علا صوت تلك السيدة التي تجلس على أحد جانبي الطريق، ترتدي رداءً أسودًا مميزًا يغطيها من قمة رأسها حتى أسفلها، إلا أنه يكشف عن بعض الشعيرات البيضاء التي أبت صلابتها وخشونتها إلا أن تقف وتعلن عن وجودها وسط هذا السواد، كذلك إذا تحركت المرأة تظهر قدمها من أسفل ملابسها خالية من أي حذاء، عارية تمامًا، والعجيب أنه لا يبدو عليها أي أثر للعوامل الخارجية، نظيفة، خالية من التجاعيد بالرغم من سن المرأة الذي يدل فقدان شعرها للميلانين تقدمه.

تجلس المرأة وتنادي بصوت تشعر عند سماعه أنك تعرفه جيدًا، صوت تشعر به داخلك، تشعر أن وراء كل جملة من جملها جمل أخرى لا تفصح عنها.

- أقرا الكف وأشوف الودع.

يقف أمامها حبيبان، بعد أن تحاول الفتاة جذب حبيبها، فيستجيب لها على مضض، الفتاة سعيدة متعلقة بذراع الفتى وتمسك في يدها الأخرى علبة هدايا.

- أشوف الكف؟!

تسأل المرأة، لتجيبها الفتاة بمرح طفولي في حين يلوي الفتى شفتيه معبرًا عن استياءه:

- الكف والودع.
- حبيبك ما يحبك، وزاهد فيكِ!

يبدو على الفتاة الحزن، كيف تخبرها بأن حبيبها لا يحبها، كيف يزهدها، مؤكد هراء، لابد أنها دجالة، أو كاذبة، لقد طلبت منها لتخبرها أنه يحبها، أنهما سيعيشان في سعادة أبدية، لا لتخبرها بهذه التفاهات.

نطقت المرأة بعد صمت وكأنها قرأت ما يدور في رأس الفتاة:

- الودع لا يكذب، حبيبك يكذب، الكف ليس بدجال، حبيبك زاهد فيكِ.

ترقرقت عيون الفتاة بالدموع، وجف حلق الفتى!

- عجوز كاذبة، تخرف.

نظرت إليه المرأة وابتسمت بثقة وهي تحدث الفتاة:

- بداخل هذه العلبة توجد وردة حمراء وكتاب شعر لأمل دنقل، أليس كذلك؟!

هنا ظهرت أمارات الرعب جلية على وجهيهما! وفتحا أعينهما على وسعها، كيف عرفت ذلك! كيف يمكنها معرفة ما لا تبصره عيناها؟!

تراجعت الفتاة للخلف تحتمي بالفتى الذي لم يكن أقل خوفًا منها، ثم أطلقا ساقيهما للريح وهربا!

- الحقيقة كاذبة!

هكذا جاءهما صوت المرأة ليلتفتا ولا يجدا لها أي أثر!

(1)

"تستيقظ كارهًا للحياة ثم تبدأ في مقاومة رغبة ملحة للموت تعتريك، وفي نهاية اليوم تحقق ما كافحت من أجله وتعيش، لكنك ما زلت كارهًا للحياة."

استيقظت حليمة على صوت صراخٍ اكتشفت أنه نفسه صوتها، ذلك الذي حاولت إخراجه في الحلم الذي راودها، لكنه لم يطعها.

إنه نفس الكابوس اليومي، تراه نائمة ومستيقظة، يتغير محتواه لكن نهايته دومًا واحدة، وكذلك شعورها به واحد، نفس الإحساس الذي يراودها في كل مرة، نفس الرغبة في الصراخ، الشعور بالاختناق.

يبدأ الحلم جميلًا فاتنًا يحمل كل ما تمنته يومًا، لكنها تختنق داخله، تشعر وكأنها ليست موجودة، بأنها تتابع حياتها من خلف شاشة ما وتعجز عن التدخل فيها، حتى يختمه مظهر هذه المرأة، بشعرها الأبيض المشعث وعيونها السوداء المظلمة، تبث في نفسها الرعب، رداؤها الأسود وذلك القرط الذي يتدلى من أنفها، تلك الشامة في خدها، كلها أشياء تدعو للرعب، تحثها على الفرار فتعجز، وتتوقف قدماها عن الحركة، تحاول الصراخ فيصاب لسانها بالشلل، تستيقظ فزعة على صوت صراخها، وما زال صوت المرأة يتردد في أذنها تقول:

الحقيقة كاذبة، الحقيقة كاذبة!

تراودها هذه الأشياء في صحوها أيضًا فتزيد من رعبها.

لقد رأت نفسها تجلس مع عمرو، ذلك الكاتب الذي لم تترك حرفًا كتبه إلا وحفظته، لقد طبعت في قلبها نقاطه، فاصلاته، علامات استفهامه، وعلامات تعجبه، أقواسه التي يفتحها في قلبها، وعندما يغلقها تغلق عينيها على حلم يجمعهما.

أحبته في صمت، تابعته في صمت‌تلهمها فكتبت، كتبت كثيرًا، أشياء لم يقرأها أحد، كم تمنت أن تحمل كل ما كتبته، تضعه تحت قدميه، كم تمنت أن تصنع له تمثالا، تضعه في منتصف الأرض و تجعل منه محورًا للكون.

ها هي تجلس معه في حفلٍ أقيم خصيصا لها، ها هي أصدرت روايتها التي تتحدث عنه والتي أيضا أعجبته، يمسك يديها يقبلها بحنان، ويبارك لها، شعور بالسعادة يخنقها من زيفه يخيفها، تتشبث بالحلم حتى آخر لحظة.

حتى يتلاشى كسراب حقيقي أو واقع وهمي، لم تعد تدري، يغيب المشهد، أين الطاولة؟ أين المطعم الفاخر؟ والأضواء الخافتة؟ وصوت الموسيقى؟ كان هنا شخصان يتراقصان يبدو عليهما الحب، لقد تعلقت عيونها بهما، وّدت لو يطلبها للرقص، أين ذهبا؟ وأين الوردة التي أهادها؟ وأين هو؟ أين هو؟!

يلفها الظلام، تغلفها البرودة، وصوت الخوف يملأها، وتظهر تلك المرأة لتخبرها بأن الحقيقة كاذبة! ما معنى هذا؟!

يتكرر الأمر، وفي كل مرة يصبح أصعب مما قبلها، يجب أن تبحث عن حل، لا يمكنها أن تكمل حياتها هكذا، خائفة من الحياة، هاربة إلى الأحلام! فتخذلها أحلامها!

نظرت إلى النائم بجوارها.

- صباح الخير، استيقظ، ستتأخر على العمل.
- لن أذهب اليوم، اتركيني أنام.
- لماذا؟!
- لأنهم طردوني.
- ماذا تقول؟!!
- أريد أن أنام.

مرت لحظات صمت طويلة، ثقيلة، تفكر، يتوقف عقلها عن العمل، فتعود للنوم.

إن التظاهر بالنوم لهو أمر قد اعتادته من زمن.

هل هي حزينة، آسفة، مشفقة عليه؟

هل هي فرحة، شامتة؟ حقا لا تدري، ربما كل هذا.

وبعد عدة ساعات من التحديق في وجهه النائم وجدته يفيق، فقامت مسرعة إلى مأواها الوحيد.

خرج من الغرفة يتثاءب، يفرد يديه على وسعهما، يمشط شعره بيديه، يلقي نظرة خاطفة على أرجاء المنزل، حتى يتجه إليها، في تلك الغرفة الصغيرة، مقبرة أحلامها الموءودة، تلك التي دفنتها حية من أجل حلم ظنته أهم.

تدفن فيها محاولات كتاباتِها، دوما ناقصة تفقد شيئًا ما، مثل حياتها تمامًا.

قبلت به رغم صراخ رفضها، حباً ظنته سيعطيها نشوة الكتابة، زوجًا اعتقدت أنه سيضمها بين أحضانه كما تضم الكتب كلماتها، ستعوضها لمسته رقة الورق، وستفوق حلاوة قبلته مذاق الحبر، بيتاً توقعت أن يمنحها أمان القلم، اختزلت نجاحها في نجاحه، بذلت كل ما تملك من موهبة لإرضائه، صبت أفكارها لإمتاعه، استغلت الحروف حتى آخر نقطة فقط لإبهاره.

دخل مقبرتها، تلك التي لم يفكر يومًا أن يسألها عنها.

حبيسة هي بين جدرانها، تخنقها أحلامها، تطاردها أشباح الأمنيات، تنظر إليها بعتاب، تتهمها بقتلها، تخبرها بأن ما تعيشه الآن ما هو إلا عقاب جريمتها، جريمة ارتكبتها في حق نفسها، وتدفع وحدها الثمن، تنبئها بأن العذاب الأكبر قادم.

- هل تقرأ آخر ما كتبت؟

- أريد أن أكل.

أعدت الطعام في صمت، وضعته في صمت، وانصرفت في صمت.

جلست تراقبه وهو يلتهم اللقيمات بشهية، هل يتلذذ بتعذيبها؟ هل تروق له آلامها؟ هل يحب صمتها؟

- هل ستخبرني لماذا تركت العمل؟
- لم أترك العمل لقد تم طردي.
- حسنا، لماذا طُردت؟
- لا أريد التحدث في الموضوع.

إذًا يتعلق الأمر بامرأة، فزوجي صاحب مبدأ، وهو أكثر ما جذبني إليه يومًا، ذلك المبدأ الذي يعذبني الآن، هو لا يكذب أبدًا، فقط يهرب، يراوغ.

لا يمنعه مبدأه من خيانتي، لا يمنعه من أن يجرحني، يحطمني، يقتلني كل يوم، فقط يمنعه من الكذب، ذلك الذي كان في حد ذاته رحمةً ربما يمنحني كذبُه كرامةً سرقها بنزواته، مزقها وألقى بها بعيدًا في سلة مغامراته.

حين سألته يوما، هل لا زلت تحبني؟ التزم الصمت، ليته كذب وقال أجل، ليته أخبرني الحقيقة وقال لا.

لقد طردوه، ربما غازل إحدى زميلاته، ربما واحدة من العملاء، أو ربما وصل به الأمر لمغازلة زوجة مديره.

يحسب أنني لا أدري بعلاقاته، يتمادى في الصمت والتكتم، لا يدري الرجال أن صمتهم هو أول ما يجعل الشك يطرق باب الزوجة.

قررت الهروب، لا تريد مزيد من الصمت، فليتحدث، فليخبرها قصة ملفقة، فليتشاجر معها، فليقتلها حتى، أي سكين ستكون أرحم عليها من نيران صمته التي تلتهمها أيضا في صمت.

صمت، صمت، صمت.

صمت يعلو حد الإزعاج، صمت يدعو للصمم من شدته.

قالت وهي تتظاهر بغباء اعتادته، وأحبه هو:

- أريد الذهاب لمنزل أمي اليوم.
- حسنا.

ارتدت حجابها –ذلك الذي ترتديه رغما عنها– وانصرفت في هدوء متوجهة لمنزل والدتها.

(2)

الخوف من البداية، لأنها ستودي بك إلى نهاية مثل التي تعيشها الآن، ستصل إلى تلك اللحظة التي ينتهي فيها كل شيء وكأنه لم يكن، وكأنك لم تضحك يوًما، لم تبكِ يوًما، وقلبك لم يكن أبدًا يدق.

ها هو يبدأ دقاً جديدًا، لكنها دقات مبحوحة، دقات منهكة فاقدة القدرة على إصدار نفس الصدى في أنحاء صدرك.

فتشعر وكأن كل ما يحدث صورة مكررة مما مضى لكنها صورة باهتة، تتمسك بها لأنك تريد أي شيء –ولو كان صغيراً– من أجواء الماضي، تظل متشبثاً بوهم، أو ربما حقيقة جديدة.

ربما حقيقة وحيدة، فما كان ما مضى إلا وهماً

جلس خلف زجاج النافذة يراقب حبات المطر وهي تداعب أفكاره، تتساقط برفق حيناً وقوة حيناً، تتصارع مع بعضها البعض، تريد كل واحدة أن تحصل على شرف الهبوط أولاً، تخشى كثيراً ألا يأتي دورها، تخشى الموت قبل أن تدرك مذاق الأرض، قبل أن تمتزج مع أتربة تُكسبها البقاء ولو دقائق قليلة، تتمرغ فيها، تتشربها، تتشبع بها.

تخاف أن تظل ملتصقة مع صديقاتها في سحابتها، لا تدري بأنها تتطلع لنهايتها، لا تدري أنها تركض لتنال حتفها، وأن بقاءها الأبدي يكمن في أن تستسلم لقدرها، أن تبقى حبيسة بين الغيوم، فإما أن تختار حرية تقتلها أو حياة تسجنها.

فقط لو نعلم متى نلقى حتفنا، لاستطعنا القضاء على مشكلتنا الكبيرة: اختيار المواعيد.

لا نستطيع أبدًا أن نعلم التوقيت الصحيح، لا ندرك أبدًا حقيقة الأحداث إلا بعد مرور زمنها، وانقضاء عصورها، وإلا لم نَدرس التاريخ؟ لم لَا نهتم إلا بالماضي؟ لماذا لا ندرس حاضرنا؟

"لو فقط ندري، لقلت لها قبل الرحيل كم أحبها، لو فقط نعلم لأخبرتها بأنني إليها أشتاق وفي بعُدها أبكي، لو فقط نعلم"

رنَّ هاتفه ليوقظه من ذكرياته، أجاب ليجد تلك الكاتبة التي قام مؤخرًا بنشر روايتها، دعته لحفل توقيع الرواية، أغلق الهاتف بعد أن أخبرها بأنه سيحاول الحضور، لكن رأسه أخذ يدور بالأفكار، هل يذهب؟ لقد ذهب إلى الكثير من حفلات التوقيع، فلماذا يتردد الآن؟ لماذا يفكر في الأمر؟ إما أن يذهب أو لا يذهب، لقد قام بنشر الكثير من الأعمال، فبَم تختلف عنهم؟ لماذا قرأ كتابها عدة مرات؟ لماذا يشعر بأنه يخون حبيبته؟!

تلك الحبيبة التي رحلت ولا زالت تسكنه.

حاول قدر استطاعته ألا يُبدي إعجابه بها، حتى أنه في بادئ الأمر عاملها معاملة سيئة لا تليق، بل أنه أخبرها بأنها لا تصلح ككاتبة وبأن كل ما كتبته هراء، أخبرها هذا لأنه يعلم جيدًا أن كل ما كتبته يتحدث عنه، وكأنها تراه من الداخل، تعري روحه وتجردها من طبقات الثياب التي استطاع بها إخفاء الشقوق والثقوب التي تملأها، وها هي بهذه الأوراق تفتح الثقوب وتَفلق الشقوق، وكأنها عاشت معه كل ما مر به أو مرت تمامًا بما مر به.

لا يعرف تحديدًا ما الذي يجذبه إليها، هل هو جمالها الهادئ؟ روحها المنطفئة؟ أو عيناها اللامعتان دومًا، لا يدري أتلمعان من سعادة أو هما مجرد كأسان من دموع الألم؟

هل ما كتبته كان السبب؟ أنها فضحته أمام نفسه بهذه الصورة؟ هو الشخصية التي لا يقرأها أحد أبدًا ولا يعرف مكنوناتها كائن من كان.

لا يدري بمَ يشعر تحديدًا لكنه يعلم أن ما يشعر به تجاهها مختلف.

أمسك بقلمه –ذاك الذي أهدته إياه–، حتى الآن لم يجرؤ على كتابة حرف به، حتى الآن وبعد هذه المدة يخرجه كل يوم، يحاول أن يكتب به، يرفض القلم حزناً عليها، فيعيده إلى قفصه الذهبي.

هل سيوافق اليوم؟ هل سيقبل أن يخونها -وهي الوحيدة التي يمكنها أن تلهمني- ويكتب كلمات من إلهام أخرى.

وهل ستقبل بي الأوراق بعد انقطاعي عنها، لابد أنها اشتاقت لقلمي، ربما عشقته في صمت بينما يضع بصماته عليها، وقد حرمتهما اللقاء، حرمتهما من تلك اللحظات التي تلاصقه فيها وتستمد منه حياتها، فتبلى في صمت وتُلقى في صمت، وفي عينيها نظرة عتاب، نظرة تقول "لقد أُسقطَت من نظري"، اليوم سأكتب، فليتها تقبل بي.

(3)

"نكتب أحيانا ليتحقق ما نكتبه وكأننا ننصب فخاخًا للقدر فنقع فيها"

اليوم ستحقق حلمها، ستصبح كاتبة لها اسم، سترى وجوه معجبيها، ستعلم رد فعلهم على روايتها، ستتحدث إليهم، وتسمع كلمات الإعجاب من أفواههم.

وقفت كثيراً أمام المرآة تتفقد هيئتها، تخلع ملابسها وتلقي بها في ضيق، ليست مناسبة، تبحث عن غيرها، تبدل كثيراً، تتوقف عند شعرها، ألا يجدر بها الذهاب لمصفف الشعر؟ كان يجب أن تفقد بعض "الكيلوات" من وزنها.

دخلت ثرية لتراها تتحدث إلى نفسها عبر المرآة.

- تحدثين نفسكِ كالعادة، سليم بانتظارك.
- ما الذي أتى به؟
- لا أدري، اخرجي لتري بنفسك.
- يا إلهي لن أتخلص من هذا المزعج.

التفتت للمرآة مرة أخرى، وأكملت حديثها، تحاول أن تتدرب كيف ستلتقي بمعجبيها اليوم، كيف تقف، ماذا تقول، كيف تقابل كلمات الإعجاب ونظرات الانبهار!

- أهلا سليم، ما سر هذه الزيارة العظيمة؟
- ظننتكِ ستفرحين.
- بالطبع أنا سعيدة، ولكن لماذا جئت؟
- سأعمل سائقا لديكِ اليوم.

- لستُ بحاجة لسائق، يمكنني القيادة كما تعلم.
- سأقود سيارتكِ وأوصلكِ للحفل بنفسي.
- وما السبب؟
- هكذا من دون أسباب، سأفعل هذا لأنني ببساطة أريد أن أفعله.
- وماذا عما أريده أنا؟ ألم تفكر برأيي؟
- بالطبع فعلت ولكنني لا أهتم، والآن هيا، إذا وقفنا نتجادل فلن تصلي اليوم، بالمناسبة تبدين جميلة.

فتح سليم باب السيارة لتدخل، ثم استدار ليتخذ مقعده خلف المقود.

- متى ستتخلصين من تلك الخادمة؟
- تقصد ثرية؟! قلتُ لك مئة مرة ثرية ليست خادمتي، إنها في مقام مربيتي، أو إن شئت والدتي.
- ليس موضوعنا، المهم أنها تضايقني كثيراً.
- لكنها لا تضايقني أبدًا، ثم إنني بحاجتها.
- إن وافقتِ على زواجنا لن تكوني بحاجتها، إن عدتي لبيت أمك فلن تكوني بحاجتها.
- ظننتُ أننا انتهينا من هذا الموضوع.
- لن ننتهي منه أبدًا، متى ستوافقين على زواجنا؟
- حقا؟! هل تمزح؟ لقد أخبرتك أنني لا أضع الزواج في خططي، وقد وافقت أن نكون أصدقاء.
- لم تقولي بأنه ليس في خططكِ، قلتِ أنكِ لا تفكرين سوى في روايتك.
- نفس المعنى!
- لا ليس كذلك، فقد نشرتِ روايتكِ، وها أنت ذاهبة لحفل التوقيع، يمكنكِ الآن التفكير في شيء آخر.
- سليم، لن أخوض معك هذه المناقشة الآن.

فسليم لا يقتنع بكوني لا أحبه، يرفض تصديق فكرة أنه مرفوض، يعتقد بأنه الأفضل دومًا، الغرور يحجب عنه كل شعور آخر، يجعله لا يلتفت حتى لكرامته التي أهدرها كل يوم تقريباً برفضي له، هو يتجاهل هذا الرفض وكل ما يترتب عليه من أشياء لا يقبلها أي رجل يعتد برجولته أو يهتم بكرامته، كم عدد المرات التي تقدم فيها لطلب يدي لم أعد أذكر، كم عدد المرات التي وقف أمام منزلي ولم أفتح له الباب، وكم مرة طلبت من ثرية طرده لكنه لا يفهم أبدًا، كل هذه الأشياء ولا يتوقف وها هو بدأ بمضايقة عمران عندما ظن أنه يمكن حدوث شيء بيننا، وهذا هو بالتأكيد السبب الذي يجعل عمران يبتعد، السبب الذي يجعله يخشى الاقتراب ويضع حدود لما يمكن أن ينبت بيننا، وربما سيمتنع عن الحضور اليوم حتى لا يراه.

(4)

لا أحد يهتم بما تفكر به، إما أن تقوله أو تظل صامتا، وعليك حينها ألا تنتظر تفهُّم أحد.

في منزل أبويها، ذلك الذي شهد مولد أحلامها وكذلك مقتلها، في هذا المنزل الكبير، يكاد يأكله الفراغ، جدران متباعدة، تماما كوجوه أفراده، تقابلها تلك الحديقة الكبيرة، تنظر للأشجار، ترى أوراقها تتطاير مع نسمات الربيع، تعود بذاكرتها لأيام طفولتها، ها هي تركض ويلحق بها جلال أخوها.

- حليمة، حليمة.
- لن تلحق بي. تقولها من بين أنفاسها المتلاحقة.

يقترب منها فتتسلق تلك الشجرة، كم تحبها، دومًا ما تضمها حين تريد الاختباء، تمدها رائحة البرتقال المنبعثة من ثمارها بإحساس ضمني بالأمان.

ها هي تعود إليها، لكن أين رائحة البرتقال؟

- أنتِ تغشين، لا يجوز تسلق الأشجار.
- يمكنني الاختباء أينما أريد، فلتلحق بي إن كنت تستطيع.

يحاول جلال تسلق الشجرة، يضع إحدى قدميه على جزعها الشامخ ويحاول أن يلحق بها القدم الأخرى، تتساقط ثمار البرتقال فوق رأسه، ترفض شجرتي أن يقتحمها غريب، كم هي مخلصة تتمسك بحمايتي دومًا، يختل توازنه فيسقط أرضًا، يصرخ من الألم، أهرول لأنزل إليه فأجد أمي أقبلت على صوت صراخه.

- ما الذي حدث؟ ماذا فعلتِ بأخيكِ؟ قالتها وهي تتفحص أخي وتضمه بين ذراعيها.

حاولت أن أبرر لها، لستُ المذنبة، هو لا يستطيع تسلق الشجرة ببراعة مثلي، لماذا تلقي باللوم عليَّ؟! في نفس اللحظة التي أقبل فيها أبي، تجمد المشهد وكأننا في فيلم سنيمائي انتهى توه، توقفتُ عن محاولة النزول، توقفت أمي عن الحديث، حتى أخي كف عن الصراخ.

أبي رجل ذو هيبة تسبقه سمعته، يخافه الجميع، كذلك يحترمه كائن من كان، أخافه كثيراً لكنني أحبه أيضًا ودوما ما أفتخر بكوني ابنته.

بادرت أمي بالحديث قبل أن يسأل:

- لقد وقع جلال وهو يلعب، هو الآن أفضل.

لم يعرها اهتمامًا، وكأنه لا يسمعها، توجه إليَّ بالحديث:

- ألم أمنعكِ من تسلق الأشجار؟

لم أستطع أن أنطق بكلمة واحدة، أفرغ هو نظرة غضب تجاهي، نظرة لها وقع أكبر من كلماته، وانصرف.

أصيب أخي بكسر في ساقه، قضيتُ ثلاثة أسابيع هي الجحيم عينه، تمنيتُ خلالها لو أن ساقي هي التي كُسرت.

لاقى فيها جلال كل أنواع التدليل، وتلقيتُ كلمات التأنيب والاتهام وسوء المعاملة، وكأنني السبب في كسر ساقه!

تعلمتُ في هذه الفترة أن أمسك بالقلم، أمسكتُ به وبدأتُ في الكتابة، كتابة مبعثرة تتسم بالهشاشة لكنها هشاشة تنمو بداخلي، وعلى قدر هشاشتها وبعثرتها فقد كانت تعني الكثير، أكثر مما يعنيه أي شيء آخر.

إن الكتابة بالنسبة لي حلم، بل هي واقع، لا! إنها حياة؛ حياة مختلفة تمامًا عن تلك التي نعيشها بالرغم من أن معظمها يتحدث عن الواقع.

أعشق الكلمات، أحبها حقًا حين تتناغم، تتداخل وتمتزج مخرجة عبارات وجمل.

ياه ما أجملها وهي تتعانق، تقبل بعضها البعض في شغف يقودها أحياناً مرح طفولي، وأحياناً شيخوخة قاتلة مبكرة أتت في غفلة من طفل ما زال يتعلم الكتابة.

إن الكتابة سحر، بل إنها أقوى وأجمل بكثير.

إنها فن الاختلاف دون اختلاف، قدرة الهروب عن طريق المواجهة، لحظة متعة ونشوة لا تساويها أي لحظة مهما احتوت من ملذات.

إنها سعادة مغلفة بذلك الحزن، ذلك الشجن الضاحك، البكاء المريح، تلك الصرخات الصامتة، ذلك الحضور الطاغي، الغياب الصريح.

حين تحاول الكلمات أن تصف الكلمات فلا بديل عن الصمت.

فليت الجميع يعلم قوة الكمات الضعيفة، حزن الكلمات الضاحكة، ذكاء الكلمات الغبية، ووضوح الكلمات المبهمة، رهبة الكلمات الجريئة، حضور الكلمات الغائبة ورحيل الباقية على قيد الا نتظار بحثا عن قارئ يفهم ما تخفيه ليكون ظاهرً

أعشق الكتابة، أحزن لأنني أكتب كلمات لا تراها سوى عيني، فأنا أحبها، أريد أن أتباهى بها كطفلي الوليد، وأغار كثيراً فلا أريد أن تبصرها عين غيري.

من هنا بدأت رغبتي وحلمي الكبير في أن أصير كاتبة.

(5)

"وتظل عيني معلقة على الأبواب لعلك تطرق أحدها"

باب فاخر، قاعة أنيقة، كراسي متراصة، إضاءة عالية، جلست خلف هذا المكتب تراقب الجميع بحثاً عنه، لقد دعته، يجب أن يحضر، يتنقل سليم بين الحضور ويعود إليها، توقع روايتها بفخر تغلفه بالتواضع، تفرحها كلمات الإعجاب فتتظاهر بالخجل، وتعود لتبحث عنه من جديد.

هل سيأتي؟ سؤال يدق بابها، تحاول التظاهر بأنها لا تهتم فتفضحها عيناها التي تخترق الجميع وتستقر على الباب رغمًا عنها.

تعود بذاكرتها إلى يوم اللقاء، يوم دخلت مكتبه بأرجل مرتعشة وعينين لا تفارقان الأرض، راسلته منذ فترة طالبةً رأيه فيما تكتب، تعجبها كتاباته، تغوص فيها، تحفظها عن ظهر قلب، تتخيل نفسها بطلة جميع رواياته، تتمنى أن تكون ملهمة أشعاره، كما كان دومًا ملهمها ورفيقها.

- تفضلي بالجلوس.

تجلس في خشوع، في حرم حضوره الرائع، ترفع عينيها ببطء، تتقابل نظراتهما، تسافر في عينيه بلا عودة.

- تشرفت برؤيتكِ، ويشرفني كثيراً أن تقرأ لي امرأة جميلة مثلك.

توقعت أن يثني على كتاباتها، أن يمدح أسلوبها، لكن أن يتحدث عن جمالها فهذا أكثر!

توطدت علاقتهما بحجة الكتابة، عرض عليها أن ينشر روايتها في دار النشر التي أسسها، أحبته أكثر مما أحبت كتابته، صارحته بهذا الحب فأخبرها بأنه لا يحب سواها، تلك الملهمة المجهولة.

- هل يمكن أن أعرف من هي؟
- لا يهم، فقد تركتني على أي حال.

تعجبت كثيراً كيف يمكنه الوفاء لحب تنكّر له، كيف يمكنه الاعتزاز إلى هذا الحد بحبيبة غادرته، لقد علا في نظرها أكثر، كم هو صادق، شفاف، لا يكتب إلا عن واقع.

صادق هو حد الجرح، شفاف حد العتمة.

ظلت تحبه، تنتظر أن يحبها، أو على الأقل يقبل حبها.

انقطع عنها، حاولت كثيراً أن تسترده كصديق، لكنه ببساطة رحل، سافر إلى حيث لا تعلم، وبقيت هي غريبة في وطنها، عالقة بين شبح حب، ومولد أمنية، بعُد المسافات يقرب قلبها منه أكثر، كما يقربها الألم من حلمها، انتظرته طويلًا لكنه لم يعد.

دخل سليم حياتها، حاولت أن تنساه، حاولت أن تسمح لسليم بما لم يسمح هو به.

وأخيراً عاد، عاد ليحبط جميع محاولاتها فتعود للبداية، تغرق من جديد، وتُحيي حبه على رفات حب سليم لها.

عادت من شرودها على سؤال، هل سيأتي؟

أغمضت عينيها تتخيل وجوده، تشعر بلمسته وتسمع صوته وتغرق في عينيه، فتحتهما لتجده يدخل من الباب، هل تتخيل؟ هل حقا أتى؟

اقترب منها، مد يده ليصافحها.

تعالت أنفاسها، ارتسمت حولها هالة ظنت أن الجميع يراها، حرارة تنبعث من جسدها، الجو دافئ أكثر مما يجب، هل حضر الصيف فجأة؟

قالت وهي تنظر في جميع أجزائه:

- لقد أتيت!
- أجل.

شعرت بكل ذرة في جسدها تحثها لمعانقته، تشبثت بكل ما فيه بعينيها حتى أقبل سليم، نظر إليه طويلا ثم نقل بصره إليها ببطء.

- ألن تقدمي لنا ضيفك.

تحدثت بصوت خفيض وهي تنظر في عينيه:

- الأستاذ عمران، كاتب وروائي وصاحب دار النشر التي تولت نشر كتابي.

قال سليم في لا مبالة مصطنعة:

- السيد عمران، غني عن التعريف.

شعرت بخطورة الموقف، هي لا تضمن ما قد يفعله سليم ولا تضمن كيف يكون رد فعل عمران.

تخشى أن يضايقه فيرحل عمران كالعادة ويختفي بالأسابيع دون كلمة واحدة، لا يرد على اتصالاتها ولا يجيب على رسائلها، لا تدري لماذا يُحملها ذنب ما يفعله سليم معه بالرغم من أنها أخبرته عشرات المرات أنها لا تحبه ولا تطيقه، في المرة الماضية عندما اجتمعا لتوقيع العقود وبينما كانت تطير فرحًا باقتراب نشر روايتها وبوجوده جوارها وتشجيعه لها أخرج من جيب جاكيته علبة صغيرة وقدمها لها، بدأ قلبها يخفق بشدة، احمرت وجنتاها وهي تنتظر أن يطلب يدها،

وقبل أن يفتح عمران العلبة أو تمد يدها لالتقاطها كان سليم يحول بينهما، ينظر إليها والشرر يتطاير من عينيه وكأنه رأى زوجته تخونه!

تضايق عمران من وجود سليم وبدا ذلك جلياً على وجهه، فعمران من ذلك النوع الذي لا يتحدث عما يشعر به، يحاول إخفاءه قدر المستطاع لكن ملامحه تفضحه دومًا؛ فهو لا يستطيع التحكم فيها هي الأخرى، كاد أن ينسحب في هدوء دون كلمة واحدة عندما بدأ سليم بحديث لا معنى له جعلها ترتعد وهي تصرخ به:

– أنت لا شيء في حياتي، لا شيء أبدًا، لماذا تعطي لنفسك هذه الأهمية وتلك السلطة؟ كم مرة قلت إني لا أريدك ولا أرغب حتى في صداقتك؟!

كان سليم مصدومًا من حديثها وكأنه يسمعه للمرة الأولى، كل شيء حدث بسرعة حتى أنها لم تعرف كيف باتوا جميعًا فجأة في إحدى المستشفيات القريبة، وكيف انتهى الحال بثلاثتهم إلى ما هم عليه الآن.

نفضت عنها أفكارها لتنظر فتجد أن عمران قد غادر، بحثت عن سليم ولا تدري السبب، هل أرادت الاطمئنان عليه؟ أو أنها أرادت الاطمئنان أنه لم يُصب عمران بأذى؟ لكنها لم تجده، كذلك حاولت الاتصال بعمران لكنه لم يجب!

بعد قليل وبعد انصراف الجميع جلست تبكي بمفردها، تبكي لكل الأشياء التي حدثت والأشياء التي لم تحدث، شعرت بيد على كتفها فالتفتت متلهفة:

– عمران!

وجدت سليم خلفها يعض شفتيه، فقامت مستندة إلى ذراعه دون كلمة واحدة مد يده مسح دمعتين منحدرتين على وجنتيها ثم انصرفا.

(6)

"ويحدث أن يكون أكثركم ألما هًو من يواسيكم"

- كيف حالكِ أمي؟
- بخير يا بنيتي، كيف تسير أمورك؟ وكيف هو زوجك؟
- كل شيء على ما يرام.
- الحمد لله، متى ستفُرحين قلبي بحفيد؟

تسألها عن طفل، طفل لها ولسليم، آه يا أمي ليتك تعلمين، تنهدت وقالت مغيرة مجرى الحديث:

- متى سيعود جلال؟
- كما تعلمين، لا يمكن أبدًا التنبؤ بما يفعله، هذا الولد يدفعني للجنون.

صمتت وشردت تفكر كيف كانت أمها تعامل أخاها، كيف تفضله عليها في كل شيء، كيف تداري أخطاءه عن أبيها، وتلتمس له الأعذار مهما فعل، في حين أنها تنتظر حليمة لتخطئ حتى تخبره فيعاقبها أبوها على ذنبها وذنوب أخيها، وربما ذنوب الأمم كافة، دوًما يعاملها كسجينة وتتولى أمها أمر حراستها، حتى يعود فيمارس سلطته من جديد وكأنه لا يكتفي بمساجينه.

يشددون الحصار عليَّ ظناً منهم أنه السبيل الوحيد لتربيتي ، حتى لا أجلب لهما عاًرا حتمياً، بالطبع مهما فعل أخي فلن يجلب لهما العار؛ فهو صبي.

- أبي أريد أن ألعب بالكرة، أن أركب دراجة، أتسلق الشجرة، أركض في الشارع، أخرج مع صديقاتي، أذهب في نزهة، أبيت عند خالتي.

وأخيراً أريد أن أكتب.

- لا يجوز ذلك.
- لماذا؟ جلال يفعل كل هذه الأمور.
- أنتِ فتاة، لكنه صبي، يمكنه فعل ما يحلو له.

إنه صبي، إنه صبي...

ما الذي يميزه عني؟ أنا أذكى منه، أركض أسرع منه، يمكنني تسلق الشجرة بسرعة، يمكنني أن ألعب الكرة أفضل منه، أحصل على درجات أعلى، تحبني جميع المعلمات في حين أنهن دومًا ما يوبخنه، فبمَّ يتفوق عليَّ؟!

والآن تشتكي أمي ليل نهار منه، أليس هو فتاكم المدلل الذي يمكنه فعل ما يحلو له؟ كلما حضرتُ لزيارتها لا تفعل شيئاً سوى الشكوى من جلال.

جلال لا يأتي إلى المنزل إلا في ساعات متأخرة، جلال اليوم بات خارج المنزل، جلال سافر دون إخباري، جلال لن يعود قبل سنة، جلال يسهر مع الفتيات، جلال يحب فتاة سمعتها سيئة، جلال يريد الزواج منها، جلال يصاحب أصدقاء السوء.

أليست هذه الأمور التي فعلها منذ زمن؟ ألم تشجعانه عليها؟ لمَ الشكوى الآن إذاً؟

لا يمكنني سوى مواساتها:

- لا بأس جميع الشباب هكذا، ربنا يصلح حاله.

إذ أنها وبالرغم من كل تلك الشكوى لا تسمح أبدًا بأن ينتقده أحد، حين وقعتُ في المحظور ونعته يومًا بالفاشل قامت الدنيا ولم تقعد، فالتزمتُ الصمت، ذلك الذي يفرضه الجميع.

عادت حليمة من شرودها حين سمعت صوت جلال:

- انظروا من عندنا.

قالها جلال وهو يتقدم نحوها، قبلّ رأسها، وضمها بحنان قائلًا:

- كيف حالكِ يا حليمة؟

هي تحبه، لم تحقد عليه أبدًا، لم تكرهه في لحظة، بالرغم من أن دراسات علم النفس تقول بأن الأخ المحبوب من الوالدين مكروه من إخوته إلا أنها تحبه وحده من عائلتها، تحبه أكثر مما تحب أباها وأمها.

انغمست في حضن تحتاجه كثيراً، تمنت لو تقول أنها ليست بخير، تمنت لو تبوح، لو تخبره أنها تعاني، أنها تقاتل الصمت بالصمت.

- بخير، كيف حالك يا أخي؟ وما آخر أخبار مغامراتك؟

تعيش حياتها من خلاله منذ زمن، عندما تريد أن تفعل شيئاً تنتظر أن يفعله ثم يقصه عليها، يحكي لها شعوره وهو يمارسه.

هرولت أمها لتقبله وتحتضنه، ثم نظرت إليها مفسرة:

- إنه غائب منذ البارحة.

هزت رأسها في ألم، وابتسمت في حزن تتجرعه منذ زمن. في حين انتقلت الأم إليه:

- هل أنت جائع يا حبيبي؟ سأعد لك الـ طعام فورًا

نظرت إلى تلك المدفأة القديمة، تذكرت منظر النيران وهي تلتهم الحطب في شهوة واضحة، تلاحقه من جميع الاتجاهات وتحكم الحصار، يتصاعد صوت احتراقه، تختفي جميع الألوان ويغلب اللون الأحمر على المشهد.

اعتادت لسنوات أن تستمد منها الدفء، حرارة وضوء يمدانها بالأمان، حتى أتى ذلك اليوم الذي اكتشف فيه والدها أنها تكتب، وجد أوراقها التي تبثها حزنها وتقص عليها أحداث حياتها فلا تملك سواها صديقًا، أمسك بها، مزقها وألقاها أمام دموعها وابتهالاتها، تركها للنيران تلتهما دون ذرة شفقة أو رحمة.

نزلت منها دموع صامتة، مسحتها مسرعة حتى لا تراها أمها المقبلة التي دعتها لتناول الطعام برفقة أخيها، لكنها اعتذرت واستأذنت في الرحيل.

قال جلال:

- هل معكِ سيارة؟
- تدري بأنني لا أستطيع القيادة، سأعود كما أتيتُ بسيارة أجرة.
- ألم يوصلك سليم؟!

لم تمتلك ردًا، أصر على توصيلها وأصرت والدتها أن يكمل طعامه، فانتظرت حتى فرغ من الطعام.

في سيارة جلال يسألها عن زوجها، لماذا يسأل الجميع عنه؟ هل يريدونها أن تكذب طوال الوقت؟ أم يستفزونها لتقول الحقيقة؟

- كيف تسير الأمور مع زوجكِ؟
- بخير.
- هل تشاجرتما؟
- لا.
- حليمة، أشعر بأنك حزينة، فلتخبريني بالأمر ربما يمكنني المساعدة.

ربتت على كتفيه، وقالت:

- لا شيء أخي أنا بخير.

- تعلمين أنني موجود إذا احتجتِ الحديث.

- حسناً، هناك موضوع أريد أن أحدثك عنه.

- خير؟

- أمي.

- ما بها أمي!

- هي حزينة لبعدك عنها، تدري بأنها تحبك ولا تطيق فراقك وابتعادك عنها كل تلك الفترات.

ابتسم جلال وقال:

- حليمةُ أنتِ يا حليمة، أتحدثُ عنكِ وعن حزنكِ، فتتحدثين عن أمي، دومًا ما تفكرين في غيرك وتنسين نفسك.

ابتسمت ولم تجبه في حين أكمل هو:

- هل تتذكرين عندما كنا أطفالًا؟ دومًا ما أرتكب الأخطاء وتعاقبين بسببي، ولا تخبرين أبي بأنني المذنب.

ابتسمت ثم ترقرقت عيناها بالدموع.

– أذكر.

ثم أكملت وهي تضحك وتبكي في آن واحد:

- وعندما أبكي وأقول لك بأنني عوقبت بسببك، تخبرني أنت وأمي بأنني حليمة الحليمة، وأن هذا العقاب لا شيء مقابل ما كنت ستلاقيه من أبي، وبأنني منعت عنك الكثير، أذكر بأنني كنت أكره اسمي لهذا السبب، وبأنني رغبتُ في تغييره، وبأنني لم أستطع أن أطلب هذا.

- هذه هي مشكلتك. قالها بغضب.

التفتت إليه باندهاش، فأكمل هو:

- أجل، دومًا ما تتراجعين عن حقوقك ومطالبك، دومًا ما ترضخين للأمر الواقع، لماذا لم تحاولي ولو مرة تنفيذ ما تريدينه رغمًا عن أنف الجميع؟
- هل حقا تريدني أن أفعل؟ ألستُ فتاة؟ تلك الكلمة التي ظلت تلاحقني كما تلاحق اللبؤة فريستها، يعاقبني الجميع فقط لأن الله خلقني فتاة.
- لا يعاقبك الجميع لأنك فتاة، بل لأنك فتاة تخلت عن حقوقها.
- وكيف يمكنني التمسك بها؟
- اتخذي قرارًا تمسكي به، حاربي من أجله.

نظرت إليه طويلًا ثم أشاحت ببصرها تجاه النافذة، ترى رجلاً وامرأة يتشاجران وتتعالى أصواتهما غير عابئة بتلك الطفلة الحزينة الخائفة التي تتوسطهما، لا يعلمان أن الله خلقهما لإسعاد هذه الصغيرة، لماذا أنجباها إذًا؟!

تعود للوراء بذاكرتها تتجسد في هذه الطفلة، تفكر كيف كان يعامل والدها أمها، وكيف حضرت جميع شجاراتهما وكانت عليها شاهدة.

تتذكر ذلك اليوم الذي تقدم فيه سليم لخطبتها.

- أريد أن أكمل تعليمي. قالت لهم.

فأجاب والدها:

- لماذا؟! هل ستصبحين طبيبة، مهندسة، إنكِ فتاة، خُلقتي لتتزوجي وتنجبي الأطفال، خلقتي لتصبحي ربة منزل.
- لكنني أريد أن أصير كاتبة.

قال بتهكم:

- كاتبة!! هل تسمين هذه التفاهات كتابة؟

علمت بأنها لن تحقق حلمها طالما أنها تسكن هذا المنزل وتجول بين جدرانه.

وافقت على سليم، الذي بدا رجلاً طيباً، وسيماً، أنيقًا، والأهم من كل هذا أنه رجل يجيد الحديث، فتنها بحديثه، هو رجل ديمقراطي، يناصر حقوق المرأة، يقول من حقها أن تتعلم، تعمل، تختار، تشارك، تعبر عن رأيها، أبدى اهتمامه بالكتابة، أخبرها بالرغم من أنه يعمل في الاقتصاد بين الأموال والأرقام إلا أنه قارئ مخلص وسيقرأ كل ما تكتبه، ماذا تريد أكثر؟! ستتحقق كل أحلامها، ستحصل على الحب والزوج، وكذلك حلمها.

وافقت على أمل أن يعطيها حباً، أماناً، أشياء تفتقدها، سيحقق لها حلمها، أو على الأقل سيعوضها عنه.

(7)

"فليجز الله الحنين والشوق وكل هذه الأشياء التي تدفعنا للجنون وارتكاب الحماقات وليغفر لنا جنوننا ويعفو عن حماقتنا"

يجلس كعادته خلف زجاج النافذة يراقب مياه النيل وهي تتحرك بروية، تتبختر مختالة وكأنها طفل صغير يذهب في نزهة برفقة والديه، كم يحب المياه! هو يعشق المطر، يهوى البحر، ويذوب في مياه النيل، لا عجب في أن الماء هو سر بقائنا، يحمد الله كثيراً لأن مسكنه يطل على النيل.

يتذكر لقاءهما، لماذا يفكر فيها كثيراً؟ لقد قرر أن يمر سريًعا بحفلها، مجرد مجاملة، أو هذا ما أقنع نفسه به، فهو في أعماقه لم يذهب إلا شوقاً لها ورغبة في رؤيتها، لم يستطع الذهاب هكذا، وجد نفسه دون إرادةً منه يزيد من طول اللقاء، دعاها لحفل آخر، وهي لم ترفض، لم تعترض، أو حتى تتمنع، وافقت وكأنها تنتظر دعوته، ذهبت معه دون أن تسأل عن وجهتهما، تلك التي لم يكن يدري إلى أين، هو فقط أراد أن يستزيد من وجوده بقربها، أراد أن يحصل على بضع سويعات أخرى برفقتها.

ذهبا إلى ذلك المطعم الذي لا يذكر منه سوى وجودها، لا يعرف إلا أنه جمعهما، ولا يهتم باسمه فما هو إلا اسمها.

مر اللقاء سريًعا، أو هكذا شعر، فتلك اللحظات التي نستبقيها تمر أسرع من مثيلاتها، لم يملك الكثير من الحديث، وهي لم تكن أقل منه صمتاً، والصمت لا يضاهيه حديث!

تعانقا كثيراً طويلًا، لم تتلاقى أجسادهما لكنهما تعانقا بصمتهما، تعانقت أعينهما، تعانقت أرواحهما، حتى جاء سليمجاء غاضبً ا حانقًا ثلأررأى فيه ذاته عندما تبعها يومًا وصرخت في وجهه "لا أريدك".

ذلك الرجل الذي يلاحقها أينما ذهبت، حدثها وأمسك يدها وجذبها من ذراعها وكأنه يملكها، تحدث بثقة يفتقدها هو بالرغم من معرفته أنها تحبه، بالرغم من كونها منحته شفتيها منذ دقائق، إلا أنه لم يكن بتلك الثقة، ارتبك، تلعثم، صمت، كان يبادله اللكمات وهو يشعر في قرارة نفسه أنه لا يضرب سوى ذاته، تتجسد صورته في المرآة فيزيد من ضرباته، لم يقل له أنها ما عادت تريده، لو كانت تحبه لوافقت على الزواج به، لماذا يهدر كرامته؟ لماذا يتبعها؟ فقد جاءه الرد من أعماقه، فأسكته وشل لسانه، جاءه صادمًا، جاءه جارحًا، يذكره بحماقته، يخبره بأنه اتبع نفس السبيل من قبل، أليس هو من ضحى بكرامته منذ زمن، ألم يكن أول المتخليين عنها في سبيل ما نسميه حباً.

تلك الحبيبة. أحبها وحدها دون كل نساء الأرض، كان يترك قلبه بحوزتها تعبث به كيفما تشاء، لم يخطر بباله لو لحظة احتمال أنها لا تحبه أو لا تريده، كان موقناً أنها تبادله ذات المشاعر، بأنها تقدر حبه ولا ترى غيره حبيباً، فكيف ترفض أي امرأة كل هذا الحب، كيف وهّن صاحبات القلوب الكبيرة والمشاعر القوية! ألا تشعر بكل هذا العشق! هو المستهام الذي أحبها دون مقابل، دون أمل وأيضًا دون يأس، كان منقسّما مشتتاً بين حبها وبين رفضها الذي أنكره ورفض تصديقه، تمسك ببقايا الأمل الكاذب الذي لا مفر من التمسك به، هو يعلم تمام اليقين أنه كاذب، كان يتعذب برفقتها لكن عذابه بعيدًا عنها لم يكن يُحتمل، فقرر هو أن العذاب بقربها أهون آلاف المرات من أي نعيم يبعد عنها ولو قيد أنملة، لكنها لم تكن تفكر به حتى، هي لم تكن تراه من الأساس، الفارق هنا أنها لم تخبره، لم تقل له أنا لا أريدك، أنا أحب غيرك، لكنها أرجحته بين النعم وال لا، مزقته بين هناك أمل وليست لك فرصة مطلقًا، بين أنني أقدر حبك وأفهمه وبين أنك لا شيء أبدًا وحبك ليس إلا حب مراهق لمعلمته لا تراه سوى طفلاً .

في النهاية انكشف كل شيء، انكشف كل ما كان منكشفًا بالفعل، اختارت تلك الليلة لتخبره أنه لم يعد موجودًا، أنه لم يكن موجودًا من الأساس.

احتفظ بقلمها، الشيء الوحيد الباقي منها، لا يدري لماذا، بالرغم من أنه لم يكتب به حرفاً منذ تركته، لا يعرف كيف يستطيع الإنسان تعذيب نفسه، أن يضع أمام ناظره شيئاً يذكره

بأكثر الأحداث ألما فيً حياته، أن يرفض التخلي عنه، وفي ذات الوقت لا يستطيع أن يلمسه خشية أن يشعر بلمستها.

يومها لعن النساء، لعن الرجال، لعن الحب، ولعن الحياة، لقد نقم عليها، حقد على حبيبها، وها هي اليوم تفعل مثلها ويتقمص هو دور الحبيب الجديد، يا لمفارقة الأقدار! فهل يلعن نفسه؟ أم يكتفي بلعن سليم؟ ولعن حبه لها؟

(8)

"الأسوأ من الحزن هو انتزاع السعادة التي امتلكتها يومًا فجأة"

استيقظت حليمة فزعة إثر ذلك الحلم، لقد كانت برفقته، لقد حدثها عمران وطلب رؤيتها، جلسا سويا أمام النيل، أخبرها بأنه يشتاق إليها، بأنه يتمنى لو يبقى إلى جوارها، أهداها خاتماً، تحدثا كثيراً، أخبرته كم تحبه.

– أغمضي عينيك.

- لماذا؟ قالتها وكل جزء فيها يبتسم.

لم يجبها بالحديث لكنه لثم شفتيها، أخذهما بين شفتيه، أًما تأخذ رضيعها بين ذراعيها، تشعر بالدفء، تشعر بالأمان، أغمضت عينيها وتمنت لو تبقى هكذا للأبد، شعرت بأنه يقبل قلبها، بأنه يأخذ قلبها ويضعه إلى جوار قلبه في أعماق أعماق صدره.

وبعد مدة لا تُحسب أبدًا، تلك الأوقات لا يمكن حسابها بالأرقام، فتحت عينيها لتجد أنه لم يعد هنا، نظرت حولها فزعة تبحث عنه ليس هنا، نظرت مرة أخرى إلى حيث كان يجلس، لتهب واقفة وتتراجع للخلف وهي تصدر شهقة مكتومة، إنها هي ذات المرأة، تجلس صامتة بردائها الأسود وشعرها الأبيض المتطاير، يخيفها المنظر فتحاول الفرار، لكن قدماها تخوناها، تحاول مرارًالكن دون جدوى، تفتح فمها وتحاول الصراخ، فتنزل دموعها صامتة، تختنق وتتحشرج الكلمات في حلقها.

– أين هو؟ تقولها دامعة.

تنظر المرأة تجاهها في صمت.

تصرخ في وجهها:

- أين هو؟، ما الذي تريدينه مني؟ لماذا تفعلين بي هذا؟ من أنت؟ لماذا تأخذينه مني كل مرة؟

كانت الكلمات تتلاحق تتزاحم بين شفتيها، تخرج مختلطة بدموعها.

- الحقيقة كاذبة. قالتها واختفت كعادتها، لتجد حليمة أنها صارت بمفردها.

تبدأ الشمس في الغروب، ويغيب المشهد من أمامها شيئًا فشيئًا، فتستيقظ فزعة خائفة تبكي وترتعد، تتحسس شفتيها، هي ما زالت تشعر بالقبلة، تتذكر صوت المرأة وحديثها، ما الذي يحدث معها؟! هل أصابها الجنون؟! لا بد أن تجد حلًا لما وصلت إليه.

(9)

" وقد تحسب أنك بلغت الهدف وأنت لم تبلغ سوى نقطة البداية، وقد تبلغ الهدف وتظنه لم يأت بعد، فما كان هدفك سوى النقطة التي بدأت منها."

جلس عمران يحاول أن يكمل مقاله الذي يعمل عليه منذ أكثر من أسبوعين، مما جعل رئيس التحرير يفقد صوابه ويخبره بأن يأخذ فترة راحة ويذهب ليستجم حتى تعاوده القدرة على الكتابة مرة أخرى.

لم يناقشه عمران بالرغم من أنه لا يحب الإجازات ولا يستطيع أن يقضي يومًا واحدًا بعيدًا عن الكتابة، إلا أنه جمع أوراقه وسافر، لم يكن يسافر من أجل الراحة، لكنه في الواقع يهرب، لا يدري مم يهرب تحديدًا، يبدو أنه يهرب من نفسه!

جلس أمام الشاطئ يشاهد الأمواج وهي تصدم بعضها البعض كما تصطدم أفكاره، لا يدري ما الذي يريده، يمسك بالقلم يحاول أن يكمل المقال لكن الأفكار تقذف به بعيدًا، يحاول تجاهلها لكن هيهات، فلا يلتصق بعقلنا بتلك القوة إلا الأشياء التي نريد التخلص منها وبقوة!

يتذكر آخر لقاء بينهما، يستعيد مذاق تلك القبلة، ويحاول أن يعرف ما الذي يشعر به تحديدًا، هل يحبها؟ أجل هو يحبها، هي الوحيدة التي استطاعت أن تخرجه من الظلمة التي ألقى نفسه بها منذ زمن، استطاعت أن تجعله ينسى مرارة الفقد، أن يحيى من جديد بعد أن لفظته الحياة خارج أحشائها، سيحيى داخلها، ويعيش فقط لكي تبقى هي.

قام مسرعًا يجمع حاجياته، سيعود إليها، يجب أن يخبرها بما يشعر به، سيعرض عليها الزواج، سيبني أسرة ويعيش سعيدًا، كفاه هربًا، لن يعيش بعد اليوم على ذكريات أصابها النفور منه، وتملكها الملل من كثرة استدعائه إياها، سيفتح مسام قلبه للحياة، سيفتحه على مصراعيه!

وقف قليلًا لا يدري لمَ لا تطيعه قدماه، تتراجع رغمًا عنه، عاد مرة أخرى إلى مكانه، جلس وأمسك بأوراقه، لا يعرف لم لا يمكنه اتخاذ أي خطوة خارج هذه الأوراق!

(10)

"بعض الأشخاص يشعرون بالاكتفاء عندما يمنحون، بعض الأشخاص خلقوا للعطاء"

ارتدت حليمة ملابسها وأحكمت غطاء رأسها، اتصلت بسائق سيارة الأجرة وهي تفكر بأنها يجب أن تتخلص من كليهما؛ الحجاب والسائق! كما أخبرها الطبيب في زيارتها الماضية.

استعادت أحداث تلك الزيارة سريًعا وهي تتطلع إلى مرآتها.

اتصلت بصديقتها حسناء، صديقة الدراسة التي لم تحدثها منذ سنوات، انقطعت عنها منذ زواجها، لم تكن علاقتهما تتعدى أوقات الدراسة على أي حال، فهما لم يلتقيا يوًما خارج قاعات الدراسة، فلم تكن صداقتهما بالقوية لكن لا بأس بها، فهي إن أرادت أن تطلق على أحدهم صديقتها لن تجد سوى حسناء، أمسكت بهاتفها وضغطت على تلك الأرقام وهي تدري بأنها لن تستطيع أن تطلب مثل هذا الطلب من أي من معارفها، فلم يكن من محادثة حسناء بد.

استقبلت حسناء مكالمتها بترحيب فاق حدود توقعاتها، هي التي توقعت على الأقل -إن لم تكن ستعاتبها- أنها ستعاملها برسمية، لكن جاءها ود حسناء ولطفها ليخيب توقعاتها، ويثري آمالها، لم تخطئ حين اتصلت بها، طلبت منها رقم هاتف زوجها، فهي تدري بأنها تزوجت من طبيب نفسي.

حين سألتها:

- خير، من المريض؟

أخبرتها بأنها تريده لصديقة، فهي وبالرغم من كل شيء تخجل أن تعلمها بأنها المريضة.

- عليها العافية، أخبريني باسمها حتى أوصي زوجي بها.
- لا داع لذلك، سأكون شاكرة إذا لم تخبري أحدًا بطلبي هذا.

هكذا انتهت المكالمة، بعد وعد بلقاء قريب وإحياء لذكريات قديمة.

غريبة هي حسناء، ما زالت تحتفظ بطفولتها بالرغم من مرور السنوات، ما زالت تحتفظ بحيويتها بالرغم من أنها تزوجت وأنجبت الأطفال!

اتصلت حليمة بالطبيب وأخذت موعدًا،أخبرت زوجها كذبةً ما ثم انصرفت.

في عيادة الطبيب، عندما سألتها الموظفة عن اسمها:

- حياة!
- الاسم الثاني من فضلك؟
- حياة الإمام.

لا تدري ما الذي دفعها لتزور شخصيتها، ربما خوفها من أن يعرف الطبيب هويتها، ربما كراهيتها لاسمها، ها هي فرصتها الأولى لتغيره.

- آنسة حياة!

هكذا جاءها نداء الممرضة ليخرجها من شرودها، دخلت غرفة الكشف، استقبلها الطبيب، كم هو وسيم وجذاب، يبدو أن حسناء أحسنت الاختيار هذه المرة.

قالت هذه الجملة لنفسها قبل أن يخطو بضع خطوات لتشاهد مظهر ساقه والطريقة التي يسير بها.

حسناء أيتها الصديقة، كيف تصف ما تراه، كيف تعبر عن صديقتها التي لا تعلم حتى الآن هل تغبطها على قرارها أم تظنها حمقاء.

فلأنها تحب أن تشعر بأن أحدهم يحتاج إليها ولأنها لا تشعر بأنها تحيا إلا عندما تكون مسؤولة عن أحد، ليست مسؤولية عادية كطعامه وشرابه ونظافته وصحته، بل مسؤولية تتضمن إسعاده.

القضاء على أي شيء يسبب له التعاسة ولو كانت هي من يسببها فلتقض على نفسها تمامًا فقط لإسعاده!

لأنها حقًا تحب من هم على حافة الانهيار، من هم على شفا الموت، تعتقد أنها تستطيع مقاومة الموت، تستطيع محاربة المصير المحتوم، يمكنها التعدي على القدر وإشباعه ضرباً لكي يتوقف، يمكنها أن تتحدى الأيام والساعات والدقائق، تستبقيها وتمنعها من المرور فقط لإعطائه المزيد من الوقت، هو يستحق المزيد، لا يمكن لحياته أن تنتهي بتلك البساطة.

انجذبت إليه بعد أن عرفت بمرضه الذي لا أمل في الشفاء منه، وقعت في غرامه أو في غرام ضعفه ووحدته، ربما وقعت في غرام مرضه!

ظنت أن هذا الحب قادر على كل شيء حتى إبقاءه على قيد الحياة رغمًا عن الموت الذي يقف مترصدًا اقتراب موعده، عاندت الجميع، قاطعت الأهل والأصدقاء والزملاء، انقطعت عن العمل، توقفت عن الحياة ظناً منها أن توقفها سيعيد إليه الحياة.

سلبه المرض كل شيء، بدءً بالحركة ثم الحديث تلتهما الرؤية ليصبح جثة تتنفس.

كل هذا وهي مبتسمة، سعيدة، مستمتعة، ليست سعيدة أو فرحة لأنه يعاني ولأنه يتألم، لأنه يشعر بالذنب طوال الوقت لأن كبرياءه تحطم ورجولته انهارت، لأنه لن يكون موجودًا في أي لحظة، كل تلك الأشياء كانت تحفر ثقوباً متعددة في قلبها، تمزقه قطعًا صغيرة تتناثر وتتبعثر مطلقةً وميضًا يجعلها تبتسم، هي سعيدة لأنه متشبث بها كطفل، لأنه يعتمد عليها ويستمد منها قوته، يستمد منها حتى أنفاسه المتقطعة، سعيدة لأنها تشاركه لحظات ضعفه، الألم الذي يعتصرها يمدها بسعادة خفية لا تستطيع هي نفسها تحديد مصدرها أو معرفة سببها، ربما هي من أولئك الذين يستمتعون بالألم ويقدسونه كجزء لا يمكن الاستغناء عنه من حياتهم، كانت

تشعر بالوحدة أحياناً، تشعر أنها تريد أحد تستمد منه قوتها أو تلقي عليه بحمولتها، لكن رغبتها بأن تتفرد بذلك الألم كانت تمنعها، أرادت أن يكون خالصًا لها مختصًا بها، عندما رحل عنها لم تبكِ لأنها فقدت شخصًا عزيزًا أو لأنها فقدت شخصًا تحتاجه، بكت فقط لأنها شعرت أنه يجب أن تذكره، عندما يموت أحدهم فأقل ما نقدمه له هو تذكره!

التقت خالد أثناء علاج زوجها كجزء من علاجه النفسي، لكنها استمرت في زيارته بعد وفاته، ربما ظهر الأمر على أنها سيدة فقدت زوجها وتحتاج لطبيب نفسي، وقد ظنت هي ذلك إلى أن أدركت أنها من كان يعالجه، لم يكن انجذابها إليه إلا استكمالًا لسلسلة التضحيات التي لا تستطيع العيش دونها.

الطبيب الذي فقد إحدى قدميه كان الشخص المناسب تمامًا لكي تحبه وترغب في الزواج منه وتجد فيه تعويضًا عن زوجها، وعكس كل النساء تزوجت برجل لرغبتها في حمايته والاعتناء به، بدلًا من أن تنتظر هذه الأشياء منه كانت ترغب أن تعطيه إياها.

ما زال صوتها طفولياً سعيدًا، طالما أنها تجد شخصًا محطمًا تعتني به وترمم ما تكسر فيه.

ليت الجميع يستطيع إيجاد السعادة في أعماق الألم.

- آنسة حياة؟ قالها متسائلًا.

لم تمهله حليمة، فهي تدري بأنها لا تشبه الآنسات في شيء.

- مدام.
- عفوًا، يبدو أن الموظفة أخطأت.
- لا، هي لم تخطئ، أنا من أخطأ.
- حسناً، أنا أستمع.

أخرج صوت سيارة الأجرة حليمة من ذكرياتها، فخرجت مسرعة.

(11)

هل أخبرك بكل ما يجول في خاطري؟

هل تستطيع أن تفهم، وتتفهم؟

هل ستصدق؟

حسناً سأخبرك، ثم ألقِ باعترافي بعيدًا عنك.

لقد توقفت عن الكتابة من وقتها، تعللت بأن الكلمات هربت مني، والأفكار زهدتني.

لكن الواقع لم يكن سوى أنني من هرب من الكلمات خشية أن تفضح أفكارًا أبت إلا أن تغرس أظافرها في رأسي، وها هي تقف الآن تخرج لسانها وتقول لقد انتصرت على كل محاولاتك.

لم َلم ْتبرح خيالي من لحظتها؟

لم َ لا زلت أفكر بك وهي بضع ساعات قضيناها سوياً ولم نكن فيها سوياً! بضع ساعات تواجدنا في نفس المكان ليس إلا.

تحدثت إلّي فيها ببعض الكلمات التي بالطبع لا تتذكرها الآن.

تلاقت فيها نظراتنا لثوانٍ معدودة، ولم تكن سوى نظرات مبعثرة هائمة لا تعني شيئا أبداً.

أعرف جيداً وأجزم بأن كل ما حدث لم يكن شيئاً، وبأننا لن نحظى بشيء مشترك أبداً.

أدرك تماماً أنّنا لسنا سوى غريبين، عابري سبيل، لن يتلاقا ثانية ً.

لكن... لم َ لا أستطيع إيقاف توغلك داخل رأسي؟!

فهل تحبيني؟

- تذكري دائمًا أننا مخيرون، كل ما يحدث لنا ما هو إلا نتاج أفكارنا وقراراتنا، الأشياء لا تحدث، نحن من يصنعها. قالها الطبيب لحليمة التي تجلس أمامه مسترخية.

- ربما أنت على حق، ربما نحن مخيرون في كل شيء إلا في وجودنا من الأساس، لقد خُلقنا دون إرادة منا، الأم تلد طفلها إلى هذه الدنيا دون أن تأخذ رأيه، ثم تقول له لك الخيار، أين اختياره في فكرة الحياة نفسها؟ لقد خلقنا الله وحرم علينا قتل أنفسنا، فنحن في الواقع مجبرون على الحياة، وهو أسوأ إجبار على الإطلاق، لا يجدي معه اختيار بعدها.

- أنت تعقدين الأمور، لم لا نكون ممتنين لأن الله خلقنا وكرمنا وأعطانا حق الحياة، إن الحياة ليست نقمه لنجبر عليها، إنها هبة، لم لا نختار نحن كيف نحياها بالشكل الذي نريده والذي يريحنا ويلبي احتياجاتنا؟

- وماذا إذا لم نكن نريد تلك الهبة؟ إذا قمت بوضعك في مكان ما ومنعتك من الخروج ثم أخبرتك بأن تفعل كل ما تريده داخل محبسك هذا، هل ستشعر بالامتنان؟ بالطبع لا، لن تفكر سوى في أنك حبيس وتريد الخلاص، هذا هو ما أشعر به تحديدًا، بأن الدنيا سجن وليس منها خلاص، مهما فعلت من أشياء ترضيني فلن أرضى لأنني لا أريدها من البداية.

- ما هو أكثر شيء تحبينه في الدنيا؟ أتفهم أنك لا تحبين الدنيا لكن حتًما هناك شيء يجعلك تشعرين بالسعادة إذا فعلتِه، أو شخصًا يمكنه أن يجعلك سعيدة؟

صمتت حليمة قليلا، ثم قالت وهي تبتسم:

- هناك شخصٌ ما.
- هل ستخبرينني من هو؟

ابتسمت حليمة، ثم ترقرقت عيناها بالدموع.

- لكنه لا يعرفني.
- حدثيني عنه.

- لا أتحدث أبدًا عنه، فقط أكتب.

- فلتقرئي علّي بعضًا مما كتبتي إذ اً.

(12)

عندما تفتح عينيك وتجد أن النور قد زال إلى الأبد، فتتمنى لو أن الدنيا بأكملها أظلمت، وبأن الله لم يترك عليها أحد يرى قط، وبأنه لن يسمح بولادة أي شخص يستطيع الرؤية أو يعرف حتى ما هو النور، لكنك ستعرف بأن كل من حولك ما زال يرى وبأن كل من سيولد سيرى وكل من سيموت سيموت والضوء هو آخر شيء اختبرته عيناه، وبأن الدنيا ليست مظلمة، ما زالت مضيئة مشرقة، تزيد من عماك أكثر، وتشعرك بعجزك أكثر وأكثر.

ستتمنى شيئا آخر، لو أنها تتوقف قليلا وتنظر خلفها لذلك البائس الذي لم يعد يراها، لو أنها تترك هؤلاء الذين ينعمون برؤيتها، وتفكر لحظة فيمن تركوه جميعا خلفهم، لكنها لا تفعل ولن تفعل، لم تفعلها من قبل فلم ستفعلها لأجلك؟!

استمرت حليمة في زيارتها للطبيب النفسي، لم تشعر بتحسن، وعندما أخبرته بذلك أخبرها بأنها السبب!

- كيف أكون السبب؟
- أنتِ لا تريدين التغيير، لا تتخذين قرارا واحدا، لا تقومين بأي شيء مما ترغبين به.
- لكنني أخبرتك بأنني لا أستطيع، هل سأستطيع أن أمنع زوجي من خيانتي، هل أستطيع أن أجعل أمي تحبني، هل أستطيع أن ألقي بحجابي عرض الحائط حتى أصير في نظر من حولي عاهرة، أو مرتدة؟!
- لا يمكنك أن تمنعي زوجك من خيانتك لكن بإمكانك أن تتركيه، يمكنك مواصلة حياتك دون حب أمك يكفي أن تحبي نفسك، والأهم من كل هذا ألا تهتمي بحديث الأخرين، يمكنك تغيير حياتك كلها إذا أردتِ.
- أشعر بأن الأمور تزيد تعقيدا من وجودي هنا.

قالتها حليمة وهمت بالانصراف عندما جاءها صوت الطبيب:

- لا تخبري نفسك دوما بأن حياتك مزرية حتى لا تصير كذلك.
- هي بالفعل كذلك.

قالتها وانصرفت وهي تنوي ألا تعود مرة أخرى.

خرجت حليمة من عيادة الطبيب مشتتة مبعثرة، لقد اعتادت أن تلقي بجميع مفردات حياتها على الظروف، هل فكرت يوما أن تواجه سليم بخيانته لها، ثم تتركه وترحل، لماذا تبقى معه؟ هل تحبه؟ هي ببساطة لا تستطيع اتخاذ أي قرار!

هل فكرت يوما أن تذهب للقاء عمران، أن تخبره دون تردد أو خوف كم تحبه، كم تتمنى لو تعيش في ظله، أن تتمتع بكنفه، أنها تذوب في كل ما يكتبه، ستعد قهوته عندما يكتب، ستكون ملهمته، ستجعل من جسدها أوراقا ليسطر عليها كلماته، ستجعل من قلبها مستودعا لكل عباراته.

دخلت منزلها وتوجهت لغرفتها دون حتى أن تنظر لسليم الجالس في غرفة المعيشة يتابع التلفاز، وقفت أمام المرآة، خلعت حجابها وأمسكت بالمقص ومزقته إربا، ثم بدأت بقص شعرها، وهي تتذكر عندما كانت تتضرع لوالدتها لكي تقصر شعرها قليلا، أوصلت شعرها إلى مستوى أذنها، ترددت في ترك الخطاب الذي أعدته منذ فترة لكي تتركه لسليم عندما ترحل أخرجته من الحقيبة ثم وضعته مرة أخرى، لا تعلم هل هي خائفة منه أم عليه، لكنها في النهاية اكتشفت أنها يجب ألا تخافه أو تخاف عليه، ستفكر اليوم بنفسها فقط، وضعت الخطاب في مكان مرئي ثم أخذت حقيبتها وخرجت.

خرج سليم خلف زوجته التي لا تستجيب لندائه، هو يراقبها منذ فترة، بدت تصرفاتها غريبة عليه، لم يعتد منها مثل هذه التصرفات، من الخروج المتكرر والغياب لساعات طويلة خارج المنزل، شرودها الدائم وأحلامها المزعجة التي لا تنفك تصيبها، وتوقظه في منتصف الليل مفزوعا على إثر صوتها الباكي، وآهاتها المختنقة، حاول أن يتحدث إليها أن يفهم السبب، لكن دون

جدوى، يشعر بأنها تغيرت كثيرا، يكاد يجزم أنها تعيش في مكان آخر، وما يراه أمامه الآن ما هو إلا بقايا جسد، لم يستطع الرحيل مع روحها الممزقة، هل تحب شخصا آخر؟ هل هي على علاقة بأحدهم؟

دقت هذه الأسئلة في رأسه، أصابته الغيرة بنيرانها وتعالت صيحات كبريائه، قرر أن يراقبها.

اتجه خلفها مسرع الخطى، يريد أن يلحق بها ويغطيها، كيف تخرج دون حجابها؟ هل أصابها الفجر؟ أم بلغ منها الجنون ما يجعل تصرفاتها خارج نطاق الحساب؟

سيصفعها على وجهها، سيجعلها تستفيق وتعود إلى صوابها الذي فقدته منذ زمن، بالتأكيد لعب برأسها ذاك الطبيب، أو تلاعبت بها تلك الكتب التي تقرأها، سيعيد إليها رشدها، ثم يعود لمحاسبة هذا الطبيب.

(13)

"وبقيت عمري أحارب لكي أغدو شخصا جيدا، حتى أنهكتني المحاولة، فقررت في النهاية أن أتقبل فكرة أنني شخص سيء وقد ارتحت جدا لهذه الفكرة."

انطلقت حليمة في طريقها الذي لا تدري إلى أين، قابلت جارتها التي نظرت لها شزرا، نظرة تخبرها بأنها إما مختلة أو فاسقة، كيف تخلع حجابها؟! كيف تخرج هكذا من منزلها؟! أين الدين؟ أين القيم؟ أين زوجها؟

كيف تقوم بقص شعرها هكذا؟ هل جُنت لتتخلى عنه؟

وإلى أين تذهب بهذا المظهر؟ نظرت لها حليمة بتحدي ثم قالت

- هل هناك خطب ما يا أم ابراهيم؟

نظرت لها المرأة ولم تتحدث، تلك المرأة التي طالما ألقت كلماتها اللاذعة على مسامعها، ها هي تصمت، مرت حليمة من أمامها وابتسامتها تتسع شيئا فشيئا.

سلكت إحدى الشوارع الجانبية عندما لمحت سيارة سليم تبحث عنها، توقفت قليلا حتى رأت السيارة تتجه في طريق لا يؤدي إليها، ثم أكملت المسير، لم تكن تدري إلى أين، أو لماذا، لم تكن تشعر بالوجود من حولها، لا تشعر بشيء إطلاقا سوى أنها حرة، أنها للمرة الأولى في حياتها تتخذ قرارا وتنفذه، للمرة الأولى تفعل شيئا لأنها تريد أن تفعله، لا لأنها يجب أن تفعله، حتى لو كان خطأ، أما يكفي أنها اختارت وبإرادتها الحرة؟! مستعدة هي لتحمل العواقب مهما كانت، سيكون العقاب أهون كثيرا من ألا تخطئ أبدا، فمن لم يخطئ ولو مرة لم يعش مطلقا.

تشعر بأنها إنسانة مختلفة، بأنها أخرجت كل الأشياء التي ظلت حبيسة في طيات كتمانها، لقد باحت بمكنوناتها للسماء وما أجملها من مستمع وحافظ أسرار!

غمرها المطر، وكأن السماء تبارك ما فعلته، الماء يداعب خصلات شعرها، يحتفل بملامستها، فتحت يديها على وسعهما، وركضت، ركضت كثيرا، وهي تشعر أنها تركض نحو غايتها الكبرى، وكأنها اليوم بدأت حياتها، إن المطر حقا يغسل أرواحنا فما أجمله!

(14)

أخطأت هذه المرة، لم أعد أحبك كما مضى، هل تعتقد أنه بعد سنوات من العذاب والألم سأبقى كما أنا، لن أتغير، لن أثور ولو حتى على نفسي، عجبا لك، دوما تدعي المعرفة، دوما تخبرني بأشياء كثيرة وكلما سألتك أخبرتني بأنها خبرتك في الحياة، بأنه علمك، ثقافتك، تاريخك الطويل. كثيراً ما أشعرتني بأنك الذكي الوحيد، صاحب العقل الوحيد، أنت الوحيد الذي يفكر ويختار، لكن ألم تفكر يوماً بأنني سأثور؟ ألم تراودك فكرة رحيلي ولو مرة؟ ألم يخبرك عقلك الكبير وثقافتك الواسعة بأنني أشعر، نعم أشعر، ربما لا أمتلك الذكاء، ربما لم أتعلم، تنقصني الخبرة، لكن من السبب؟ أليس أنت؟

فالإحساس لا يحتاج إلى تلك الأشياء مطلقاً، لا يحتاج لسعة العقل ومهارة التفكير، ولا يحتاج لكل هذا الذكاء، يمكنني أن أكرهك بكل بساطة، كما أحببتك.

تعلمت أن أحبك بمفردي، ولكنك علمتني أن أكرهك

فانظر ماذا فعل جهلي وقلة خبرتي

وانظر ماذا فعل بك ذكاءك وعلمك

وها أنت تقف أمامي الآن وكأنك تعرفني للمرة الأولى، بالطبع فهذه المرة الأولى التي أسمح فيها لنفسي بالتواجد، فضلت دوماً أن أكون مجرد ظل لشبه اعتقدتُ أنه رجل.

أمامي للمرة الأولى ضعيف، مهزوم، منهار، ذليل، مكسور.

أليست تلك الصفات التي علمتني إياها؟ ولكنك نسيت أن المعلم يتعلم قبل تلميذه، ونسيت أنه أحيانا يتفوق التلميذ على معلمه.

تسأل الآن فقط عما أريده، الآن فقط عرفت بأن لدي رغبة، بأنه يمكنني أن أريد، يمكنني أن أطلب.

ألا تدري بأنه ما عاد يعنيني! ألم تفكر يوماً بأنك ستريد يوماً وبأنني من سأملك!

هل تعتقد أنك ستحصل هذه المرة على ما تريد؟

هل تعتقد أنني سأترك نفسي، وأعود لأمارس عملي كظلك؟

هل تعتقد بأنك كنت يوما رجل؟ ألم تدري بعد بأنك الظل؟ وما وجودك إلا ادعاء.

أنت لست سوى وهم، لست سوى شبح، أنت مجرد ظل!

فقد أخبرونا في الماضي أن الرجل فاعل والمرأة مفعول به، والجملة بدون فاعل لا تكتمل، ولكن يمكن الاستغناء عن المفعول به.

هذا صحيح إذا كانت الدنيا مجرد فعل لازم.

لكنها فعل متعد، يستمد وجوده وشرعيته من وجود مفعول به ليتعدى عليه، ولماذا لم يخبرونا أن الفعل يمكن أن يبنى للمجهول.

أخبرونا أن الرجل يفعل كل شيء إلا الحمل والرضاعة، وأن المرأة لا تفعل سواهما.

لماذا لم يخبرونا أن هذان الفعلان هما السبب في وجود الرجل؟

أخبرونا أن الرجل غاية والأنثى مجرد وسيلة لإرضائه.

لماذا لم يخبرونا أنه لا غاية تُدرك دون وسيلة؟!

لماذا لم يخبرونا أن الوسيلة يمكنها التواجد وليس بالضرورة الوصول للغاية؟

أخبرونا أن النساء دوماً خطأ وأن الرجال هم الصواب.

لماذا لم يخبرونا أن كل الرجال تعلموا الصواب والخطأ على يد امرأة؟!

لن أصير بعد اليوم مجرد مفعول به، لم أعد وسيلتك، لست تلك اللعبة التي خلقت لتسليتك، لن أبقى فقط لأنك تريد أو لأنهم يريدون أو لأن الكون بأكمله يريد، ولو كان رحيلي سيغضب الكون بأسره فلن أبالي.

أحكم سليم قبضته على الخطاب ليجعل الورقة تتجعد بعدما قرأه عدة مرات.

ثم قاد سيارته متوجها لعيادة الطبيب الذي تزوره زوجته.

(15)

"ماذا لو أن ما تركض هربا منه كل تلك المدة لم يكن سوى ظلك؟!"

في طريق العودة للمنزل، أخذت حليمة تستعيد أحداث تلك السويعات التي قضتها حرة، طليقة، وأيضا ربما للمرة الأولى سعيدة، حتى انتهت بأعجب ما يمكن أن تنتهي به، أخذت تفكر وجسدها كله يرتجف، في تلك المرأة، هي متأكدة أنها ذات المرأة التي تزورها في أحلامها كلما أغمضت عينيها، لم ترها من قبل سوى في أحلامها وخيالاتها، وربما وساوسها كما قال الطبيب، امتلأ عقلها بتلك الأحداث، إنها لنهاية عجيبة ليوم غريب! شعرت بدوار شديد وهي تتذكر لقاءها بتلك المرأة، ماذا فعلت بها؟ لماذا تشعر بأنها الآن داخل عقلها تنخر في أجزاءه وتغرس أظافرها بين طياته، تملأه تماما، هو فارغ من سواها، وكلماتها تعلو فيه وصدى صوتها في أذنيها يجعلها صماء عن كل ما حولها، تحاول أن تتماسك، تريد أن تصرخ فلا يخرج صوتها، تتذكر أحلامها، إنها نفس المرأة بزيها الأسود وعيونها الثاقبة، وذلك الصوت الذي لا يمكنها نسيانه، تلك الكلمة التي طالما أيقظتها من نومها مفزوعة، ها هي تصرخ في أرجاء رأسها وتقول الحقيقة كاذبة، كاذبة الحقيقة فكيف هذا؟! تستحضر مشهدها وهي ممددة على الرصيف وكأنها تنتظر قدوم حليمة حتى تهب واقفة وهي تقول:

- أقرا الكف وأشوف الودع.

فتلتفت حليمة تجاه الصوت فجأة، هي ليست من محبي تلك الأشياء، ولم تلتفت لتقرأ الكف أو ترى ودعا، لكنه نفس الصوت، لقد أثارها بشدة جعلها تشعر وكأنها تدور حول نفسها كما كانت تفعل وهي صغيرة أثناء لعبها، استدارت بكل حواسها لتلك المرأة، التي هالها مظهرها، إنها ذات المرأة بكل تفاصيلها، حاولت أن تتحدث فلم يطعها لسانها، تحث قدميها على الحركة لكن دون جدوى، أعادت المرأة كلامها"

- أقرا الكف وأشوف الودع.

استجمعت شجاعتها واقتربت أكثر، تدهشها تفاصيل المرأة وبخاصة قدميها، قدماها ناعمتان جميلتان بالرغم من أنها لا ترتدي لا جورب ولا حذاء، وكأنها لم تضعهما يوما على الأرض. مدت كفها للمرأة في صمت يقطعه صوت أنفاسها المتعالية ودقات قلبها الخائفة أمسكت المرأة بالكف، كانت يداها ناعمتان كالحرير! وكأنها مندّاة بالماء أو بالعطر!

قالت المرأة بنفس صوتها الذي لا تتغير نبرته أبدا:

- حياتك ما هي لك، وأنت لست أنت، أنت هي وهي أنت، وهو لك، وهي له.

خرج صوت حليمة بعد انقطاعه لفترة ظنت خلالها أنها خرساء:

- ماذا تعنين؟ لست أفهم شيئا!

أعادت المرأة نفس حديثها السابق:

فقالت حليمة متجاهلة تبصيرها فهو لا يعنيها بقدر ما تعنيها حقيقة تلك المرأة:

– ألم نلتق من قبل؟

– ما شفت مثل هذا الكف من قبل.

– لكنني متأكدة من أنني رأيتك مسبقا!

– لا شيء في هذه الدنيا مؤكد، ما الذي يجعلك متأكدة من أنك تقفين الآن هنا أمامي، لماذا لا يكون مجرد حلم؟ لم أنت متأكدة من أنك ذات الشخص، أليس من الممكن أن تكوني شخصا آخر؟

قاطعتها حليمة:

- متأكدة لأن لدي أوراقا تثبت شخصيتي.

– وكيف تتأكدين أن الأوراق سليمة أو أنها موجودة أصلا؟ أليس من الممكن أنك تتخيلين وجودها؟

– أنا لست مجنونة لأتخيل مثل هذا!

– وما أدراك ألا يمكن أن تكوني كذلك وأنت لا تعرفين؟ هل يمكنك أن تتأكدي بأنك الآن على قيد الحياة؟ ألا يمكن أن يكون كل هذا مجرد حلم كبير نحياه جميعا وسنستيقظ عما قريب؟

استوقفتها كلمة حلم، هل يمكن حقا أن يكون كل هذا مجرد حلم من أحلامها الكثيرة؟ لكنها تشعر أنها حقيقة، هي متأكدة أنها حقيقة، إن كان حلما لكانت عرفت هذا!

- الحقيقة كاذبة!
- وكيف تكذب الحقيقة؟
- الحقيقة دائما كاذبة، وأنت تعيشين الكذب، أنتم جميعا تعيشون الوهم.
- ما الذي تعنيه؟!
- لا أعني شيئا أبدا، هل جربتِ يوما أن تسألي نفسك من أنت، ما الذي تريدينه من الحياة؟ فكري جيدا وستصلين إلى الإجابات لجميع أسئلتك.
- لماذا تفعلين بي هكذا؟

– أنا لم أفعل شيئا، كل ما يحدث لك ما هو إلا من عملك.

- إذن لماذا تلاحقينني؟
- لا ألاحقك، أنت من يلاحقني، أنا لا أتحرك من مكاني أبدا.

مسحت حليمة وجهها بكفيها، تشعر بالعرق يبل جبينها ويتساقط ليغشي الرؤية في عينيها، أغمضتهما لثوانٍ ثم فتحتهما لتجد أنه لا أثر للمرأة!

أخذت تضرب وجهها وتمسك بأطرافها علها تستيقظ لكنها لم تستيقظ، حاولت أن تفتح عينيها على وسعهما لكن لا جدوى، إنها هذا ليس حلما، هي حقيقة لكن كيف تكون حقيقة كاذبة؟!

(16)

مهما غلبك الاشتياق وصرخت نفسك مستغيثة من كل تلك الأسوار التي تحيط بها، فلا تفكري في عبورها حتى لو ستدمي الأصفاد معصمي نفسك، لو ستصلبين قلبك على أبواب سجنك، أو تدفنين روحك وتسقين قبرها بدموعك، لا تحاولي أبدًا أن تبوحي بشوقك ليرى شمس وجهه، حتى لا تحترقي للهب وتلتهم بقاياكِ النيران!

انتظرت كثيرا أن يحدثها عمران منذ آخر لقاء لهما، ذلك اللقاء الذي طالما حلمت به مذ رأته أول مرة، تلك اللحظة التي طبعت فيها كل تفصيلة من تفاصيله الدقيقة في قلبها وتمنت لو أنها امتلكتها، شعرت في تلك الليلة بأنها حقل تمتلك كل تلك التفاصيل عندما لامست يديه يديها شعرت بذلك الدفء الذي يأتي بعد ليال طوال من البرودة، وعندما قبلها شعرت بأن لديها شفتين للمرة الأولى، لأول مرة تشعر بكل هذه المشاعر المختلطة، وجف قلبها من السعادة كما لم تشعر بالسعادة من قبل، وتمنت ألا تنتهي تلك الليلة، استطاعت أن تعدها الليلة الأسعد في تاريخ حياتها كله وانتظرت ليال سعيدة أخرى برفقته، انتظرت كثيرا، لكنه لم يظهر من وقتها، لم تره ولم يحدثها وعندما انتهت الفترة التي اختارتها للتدلل واتصلت به لم يجب، فقررت في النهاية أن تذهب إليه بعدما أسهدها القلق، واعتصرها الحزن، لكنه وبكل بساطة تهرب منها!

ثم علمت بعد ذلك أنه سافر، وربما لن يعود مرة أخرى، لا تدري لماذا شعرت بالشفقة تجاهه، هو شخص لا يستطيع أن يكون سعيدا، شخص يهوى الحزن، فربما يكون هذا الحزن هو السبب الذي جعله كاتبا ناجحا، فلا يريد التخلي عنه، ربما ما جعله حقا موهوبا هو الألم، ذلك الألم الذي يمزقها من الداخل الآن، ربما سيجعلها أيضا مثله، ربما سيكون هو السبب في نجاحها، ليست حزينة هي فقط تتألم والتألم يبدو جيدا، التألم يمنحها شعورا لا تعرف كنهه،

شعورا لا تريده أن يختفي، تريد أن تعيش تلك الحالة كاملة، لقد أحبته وربما أحبها حظيت معه بأجمل لحظات عمرها على الإطلاق ثم افترقا، هكذا دون سبب أو مبرر، ربما ستمنحها تلك الحالة بداية لروايتها الجديدة والتي بالطبع ستكون أكثر نجاحا من سابقتها الساذجة تلك التي اتخذت من السعادة مفتاحا لها.

(17)

"أحيانا تكون المشكلة الوحيدة أنه ما زال بداخلك بعض القدرة على التحمل"

عادت حليمة المنزل بعد عدة ساعات لتجد سليم في انتظارها، لقد جاء الوقت ليلعب هذا الدور، من الآن فصاعدا هو الذي سينتظرها، هو الذي سيتألم، سيفكر بين الثانية والأخرى عن مكانها، ستخنقه فكرة أن يكون أحدهم برفقتها،ستقتله الغيرة وتمزقه أشلاءً ، سيبعثره الانتظار، وتشتته الظنون.

- أين كنتِ؟

جاءها صوته باردا، خاليا من أي تعبير.

لم تعره اهتماما وأكملت طريقها إلى غرفة النوم، فوجئت به يمسكها من شعرها بقوة ويصرخ:

- ألم تسمعي؟ أين كنتِ؟

تعالت صراخاتها المتألمة وحاولت الفرار من بين يديه، لكن قبضته كانت أقوى من أن تتملص منها.

ازداد علو صوته وحدته وخرجت كلماته ممزقة لفكيه:

- أين كنتِ؟

علا صوت بكائها، واختنق صوتها:

- كنت عند أمي.

- كااااااذبة، لقد ذهبت إلى هناك ولم أجدك، أين كنتِ؟ تحدثي وإلا سأقتلك، أيتها الخائنة.

لم يسمع سوى بكاءها الذي تحول إلى نحيب هستيري، ازداد غضبه فأحكم قبضته عليها، ثم أخذ يصفعها على وجهها، حتى وقعت مغشيا عليها.

فتحت عينيها لتجد أنها محاطة باللون الأبيض، ذلك الذي يمثل عندها الموت، أيمكن أن تكون ماتت؟! أم أن كل ما حدث لم يكن سوى حلم؟! وها هي استيقظت، حاولت أن تستعيد وعيها كاملا، تحرك أطرافها، تشعر بثقل في يديها وقدميها وكأنها أكياس من الملح، أدارت حدقتي عينيها في أرجاء ما حولها، وقعت عينيها على تلك الممرضة المتلحفة بالبياض، ذلك اللون الذي تكرهه، الأسود لا يعبر عن الموت لا يعبر عن الحزن لكنه الأبيض وحده الأبيض يعبر عما لم يعد موجودا، يعبر عن الفراغ، الضياع والتيه، كم تكرهه!

تحدثت بلسان أسكره الألم:

- أين أنا؟!

- تعرضتِ لحادث وأنتِ الآن بالمشفى، لا تقلقي سيدتي فأنت بخير.

- أريد أمي.

- حسنا، سأبلغ الطبيب باستعادتك وعيك.

دخل الطبيب

- كيف حالك آنسه حياة؟!

- أشعر بـ...، عفوا يبدو أنك أخطأت، فأنا أدعى حليمة كما أنني -احم- مدام.

- لكن الأوراق التي وجدناها في حقيبتك من هوية ورخصة قيادة كلها باسم حياة، حياة الإمام.

للاسم عليها وقع لم تفهمه، تشعر بأن لرنينه شيء داخلها، لكنها لم تفكر كثيرا، حيث أن الأمر بات خطيرا، أرادت أن تصحح هذا الخطأ فورا، وتزيل أي أثر له.

– لكنني أخبرك أنني حليمة، حليمة جابر، قد تكون تبدلت حقيبتي مع تلك التي تتحدث عنها، أو ربما أخطأ الموظفون، ألا يحدث هذا؟!

قالت جملتها بعصبية، لم يكن مصدرها سوء الفهم هذا، بل إحساس غريب ينتابها مذ سمعت الاسم.

– حسنا، مدام حليمة هل تريدين منا الاتصال بأحد أقاربك ليأتي؟

– نعم أريد أمي.

(18)

تلقت السيدة كامليا اتصالا هاتفيا يخبرها بأن ابنتها الآن في المشفى، ارتدت ملابسها على عجل ثم خرجت مسرعة وأشارت لسيارة الأجرة التي لحسن الحظ استجابت لها.

جلست السيدة كاميليا في المقعد الخلفي تتمتم بالدعاء أن تكون وحيدتها بخير، تتذكرها وهي صغيرة، كيف أنها ولدت في شهرها السابع غير مكتملة، وكيف قضت هي ووالدها الليالي في المشفى، الفرحة التي أصابتهما عندما أخبرهما الطبيب بإمكانية اصطحابها للمنزل، أول مرة تنطق بحروف كلمة (ماما)، أول يوم دراسة، أول مرة تركب الدراجة عندما وقعت وكُسرت ساقها، الذعر الذي أصاب والدها عندما عاد من عمله ليجد ساقها محاطة بالجبس!

تتذكر اليوم الذي قررت ابنتها ترك المنزل والاستقلال بحياتها، كيف ابتعدت عنها كل تلك المدة من أجل تحقيق حلمها كما قالت.

- لا يمكنني الكتابة عن الحرية في حين أنني محاطة بقواعد المجتمع الخانقة، أحتاج للاستقلال بحياتي حتى أتمكن من التعبير عن أفكاري.

لم تستطع يومها أن تطلب منها البقاء ولو لأجل والدها المريض!

تتذكر أنها أصرت ألا تتزوج كي تبقى حرة، حاولت كثيرا إقناعها بأن الحرية يمكن تحقيقها بالقرب من أشخاص يحبونك وتحبينهم، يحيطون بك ويقدمون الدعم، بأن الحرية لا تعني أبدا أن تكون وحيدة، لكنها رأت شيئا ما في عيني ابنتها، شئيًا تعرفه جيدا؛ إنه الخوف.

مَم كانت خائفة في هذا الوقت؟! هل كانت خائفة منها ومن والدها؟ هل خافت أن يجبراها على شيء لم ترغب به؟ هل توقعت أن يسمحوا لأحد أن يفعل؟ حتى لو كان زوجها!

حاول والدها طمأنتها، إن سليم شخص جيد، سليم لن يمس حريتها، سيكون عونا لها في طريق نجاحها، وسيمنحها من الحرية ما لم تحصل عليه امرأة متزوجة من قبل، لكن خوفها كان أكبر من أي وعود، لقد حال هذا الخوف بينها وبين والديها، فكيف يمكنها أن تتخطاه من أجل شخص آخر؟! لقد قالت لها بأنها لن تخاطر بهذه الحرية إلا عندما تجد شخصا يستحق ذلك.

لقد جرحتها بتلك الكلمات إلا أنها تمنت من أعماق قلبها أن تجد هذا الشخص، فليتها تجده!

- وصلنا. قالها سائق سيارة الأجرة مما جعلها تتنبه وتنفض غبار الأفكار عن رأسها.

دخلت المشفى في شيء من الترقب والقلق، وقفت أمام موظفة الاستقبال.

- لقد تلقيت اتصالا بخصوص ابنتي، اسمها "حياة الإمام"، هل يمكنني رؤيتها؟

اصطحبتها المرأة إلى غرفة، طرقت عدة طرقات ودخلت، تبعتها كاميليا، لتجد الطبيب الذي رفع رأسه من فوق المكتب ليقابلهما بعيون حمراء ونظرة غاضبة وجهها للموظفة.

قالت في عجل كأن ما ستقوله سيحميها من غضب الطبيب الذي لم ينم منذ ليلتين.

- السيدة كاميليا والدة السيدة "حياة الإمام" أو "حليمة" قالتها الموظفة بصوت خفيض ونبرة حائرة.

انصرفت الموظفة، وطلب الطبيب من السيدة كاميليا الجلوس.

- أين هي ابنتي؟ وما قصة حليمة تلك؟ أين هي حياة؟ أريد رؤيتها.
- يجب أن نتحدث أولا.

ظهرت أمارات القلق على وجهها وتحدثت في جزع، والدموع تكاد تهرب من عينيها.

– هل أصابها مكروه؟

- اطمئني هي بخير، لقد تم نقلها إلينا بواسطة بعض المارة بعض أن فقدت وعيها في الطريق ووقعت لتصطدم رأسها بالأرض، لكن هناك شيء ما أود معرفته منك.

صمتت منتظرة أن يكمل في حين تنحنح هو، ثم قال:

- هل تعاني ابنتك من أي مرض نفسي أو عصبي؟

وقفت كاميليا وعلا صوتها:

- ما الذي تقصده؟ أريد رؤية ابنتي فورا.

- أرجوكِ اهدأي، إن ابنتك حياة منذ دخولها المشفى وهي تدّعي بأنها لا تدعى حياة وبأن اسمها "حليمة جاد"، كنت لأصدقها وأكذب جميع الموظفين، لكن الأوراق كلها تؤكد ذلك، هويتها، رخصة القيادة، حتى أن إحدى الموظفات تعرفت عليها حيث أنها قرأت روايتها كما قالت، أنا لا أقرأ الروايات على أي حال، ولا أعرف إن كانت كتبت إحداها.

جلست كاميليا في هدوء وكأنما تحاول إنقاذ بقايا وعيها:

- هل تعني بأن ابنتي قد جنت؟!

- لا، بالطبع لا، ربما تعاني من مرض نفسي ما، أو ربما تمر بذلك لفترة معينة وستزول كل هذه الأعراض، لم أشخص الحالة بعد، أردت أن استفسر عن الوضع منك أولا.

- أريد أن أراها. قالتها والدموع تتسابق في عينيها.

(19)

دخلت كاميليا الغرفة لتجد ابنتها جالسة تضم ركبتيها إلى صدرها وتثبت عينيها على بقعة معينة من الغرفة، ويبدو الخوف على محياها.

ما أن رأت والدتها حتى هبت واقفة وارتمت في أحضانها.

- أمي، لقد ضربني سليم لأنني خرجت من المنزل تصوري، لقد قال عني خائنة، هو الخائن، هو يخونني طوال الوقت ولم أكن أتحدث، لم أخبرك ولم أخبر أخي من قبل، لا أريده بعد اليوم أريد الطلاق يا أمي.

"أخي!" عن أي أخ تتحدث، وكيف ستطلب ابنتها الغير متزوجة الطلاق؟! ما الذي أصابها، هل يمكن أن تكون جنت؟! هل تعتقد بأنها تزوجت سليم؟ هل حقا ضربها؟ يجب أن تتحدث إليه.

– حسنا، كل ما تريدينه سيتم، والآن أخبريني بما حدث بالتفصيل، ما الذي حدث وكيف جئتِ إلى هنا؟

بعد أن قصت عليها تفاصيل ما حدث منذ زيارتها للطبيب النفسي وخروجها من المنزل ثم عودتها وضرب سليم لها، ذهبت كاميليا لرؤية الطبيب مرة أخرى.

- إنها تخبرني بأشياء ليس لها وجود، تعتقد بأن لها أخ، وأنا لم أنجب سواها، تعتقد بأنها تزوجت وبأن زوجها ضربها لذلك هي هنا الآن، ما الذي أصاب ابنتي؟

انهارت في البكاء تماما بعد أن أنهت جملتها.

- يبدو أنها تعاني من مرض نفسي ما ربما كان موجودا قبل الحادث، أو ربما أثر اصطدام رأسها بالأرض خللا في بعض وظائف المخ، يجب أن نطلب استشارة طبيب مختص.

- لكنني رأيت آثار ضرب على وجهها.
- يمكن أن تكون تعرضت للضرب قبل الحادث أو ربما هي من فعل هذا بنفسها.
- ابنتي ليست مجنونة، ابنتي ليست مجنونة، صرخت كاميليا في وجهه، سأصطحبها للمنزل.
- لا يمكن ذلك يجب إجراء بعض الفحوصات أولا، من الممكن أن تكون مصابة بارتجاج في المخ لذا يجب أن تبقى تحت الملاحظة.

وبعد عدة أيام قضتها كاميليا برفقة ابنتها في المشفى وبعد أن تأكد الطبيب بأن صحتها الجسدية بخير وأن كل ما تعاني منه الآن نفسي ويجب عرضها على طبيب للأمراض النفسية والعصبية، اصطحبت كاميليا ابنتها للمنزل، لتبدأ معها معاناة أخرى، كيف ستخبرها بالحقيقة، كيف ستواجهها بما تمر به، ربما تضطر أن تخبرها بأنها مجنونة!

(20)

"تتمنى وتخشى كثيرا أن يتحقق ما تتمناه"

دخلت منزل والدتها لا تدري لم تشعر بالغربة، وكأنها لم تأت هنا منذ مئات السنين، تنظر لكل ركن فيه، تحاول أن تستعيد ذكرياتها لكن دون جدوى لا تتذكر من طفولتها شيء.

كيف غابت ذكرياتها هكذا مرة واحدة؟ لطالما تمنت أن تفقد ذكرياتها الأليمة، كانت دوما تظن أنه لا شيء يدعى نسيان، فما هو إلا تجاهل عقلنا لأحداث يؤلمه تذكرها، هي لم تنس شيئا لكنها تشعر بأنها تهبط في أعماق المحيط، لترقد فاقدة جزء منها لا تدري أين ذهب أو متي سيعود.

تفرط أمها في رعايتها.

لم تكن أمها بهذا الود من قبل، فما الذي غيرها؟ هل أحبتها فجأة أم هو المرض ما يقرب بيننا؟ ربما يشعر المرء بأنه عدو يجب أن يتكاتف البشر ضده حتى لو كانوا أعداء قبل مجيئه.

ليتها مرضت هكذا من قبل، ليت سليم صفعها هكذا لتحظى بحضن أمها الدافئ الحنون، ليته فعل منذ زمن ليخلصها من أي رابط بينهما، وليتها استمعت لرغبتها منذ زمن ما كانت عانت كل هذه المدة.

مرت الأيام بين الدواء والنوم والراحة التي أصابتها بالملل فقررت أن تشارك والدتها في أعمال المنزل، هبطت الدرج بحذر ثم دخلت إلى المطبخ حيث والدتها ومديرة المنزل نجاة.

– صباح الخير أمي.

– حبيبتي ما الذي جعلك تتركين الفراش؟

– أنا بخير، لا داع للقلق هكذا أريد مشاركتك بما تفعلينه.

أخذ ثلاثتهم يكملون أعمال المنزل ولم تكف نجاة عن الثرثرة.

ما الذي تقوله هذه المرأة؟! حديثها يبدو غريبا حقا، تتحدث عنها في طفولتها، أشياء لا تذكر أنها عاشتها يوما، تحدثها عن والدها وكيف أحبها ودللها، تحدثها عن سفرها للخارج لتلقي دروس مكثفة في الكتابة، ثم تتحدث عن وجوب وجود الزوج في حياة كل منا، فكيف يمكنها العيش هكذا دون زوج يكون لها عونا وتكون له سكنا، كيف ترفض الرجل الذي لا ترفضه عاقلة! أتركض وراء أحلام لا يغني وجودها عن وجود حضن زوج وأمان بجانبه، ثم تحاول كاميليا إيقاف نجاة عن الحديث أو إبعادها عن المكان إلا أنها تصر أن تكمل نجاة وتخبرها بكل ما تعرفه، تحاول نجاة أن تمسك لسانها لكنها تصر والدموع تخنقها فتشعر المرأة بأنها ارتكبت خطيئة بهذا الحديث، لتفكر قليلا فيما يمكن قوله، وتأتي تلك الفكرة أمام عينيها حين ترى رواية حياة في إحدى الأرفف بالمكتبة فتسحبها مستغيثة بها ربما تعوضها عما قالته من أنها لم تتخذ القرار المناسب برفضها الزواج، لتقول إن نجاح المرأة في عملها أمر لا بد منه وأنها نجحت جدا وترفع الكتاب أمام عينيها لتريها دليل نجاحها.

تمسك الكتاب بأيدٍ مرتعشة، تقرأ ما كتب على غلافه.

الاسم "حياة الإمام"، تتمالك نفسها وتجاهد بما بقي فيها من رمق لتخرج جملتها:

– لمن هذا الكتاب؟؟

تسرع المرأة لتجيبها عندما تسكتها كاميليا بنظرة تتبعها كلمات تعنيف، لتذهب منكسه الرأس إلى المطبخ.

تتوجه لابنتها، فتعيد هي سؤالها بما يشبه الهمس، لم تجد بدًّا من مصارحتها.

– إنه لك حبيبتي، ألا تتذكرين؟

تمر في رأسها بعض الذكريات عن أنها كتبت روايتها الأولى، تجلس لتوقعها في حفلها، وقد أتى عمران، يختلج قلبها وتشعر بالدماء تصعد إلى رأسها، إنها نفس الرواية التي رأتها في حلمها، بدأت الأحلام تتداخل في الواقع، ربما هي الآن في حلم، بالتأكيد هي الآن في حلم!

- أنا أحلم أليس كذلك؟ أرجوك أمي أخبريني بأن هذا مجرد حلم وبأنني سأستيقظ وأعود لحياتي.

يا لمفارقة الأقدار! ها هي تتمنى العودة لحياة كانت تزهدها وتريد الهروب من كل ما تمنته يوما.

هل لأن تلك الحياة تبدو واقعية! وما فائدة واقعها إن كانت لا تريده؟ أتتقبل هذه الحياة التي يدعيها الجميع؟ إنها كل ما رغبت به يوما، فلم لا تقبل بها وتعيش سعيدة؟ إنها الآن امرأة قوية، تتخذ قرارات حياتها، هي ليست متزوجة من سليم، تعمل ككاتبة، وأصدرت روايتها، تحبها والدتها، فلماذا لا تستطيع تقبل تلك الحياة؟!

جلست تبكي أرضا وهي تردد عبارة واحدة ولا شيء غيرها "إنه حلم، مجرد حلم وسأفيق"

حاولت والدتها تهدئتها لكنها فشلت، اتصلت بالطبيب النفسي الذي كانت تذهب له ابنتها، هي تنوي منذ مدة أن تحدثه لكنها كانت تؤجل هذه المواجهة لكن يبدو أن القدر استقدمها.

(21)

فلتتوقف عن التنفس قليلا، ولترى ما الذي سيحدث، هل رأيت؟ لم يحدث شيء إطلاقا، لم يشعر أحد بهذا ولم ينتبه أي كائن حي إلى أن الهواء لا يصل إلى رئتيك، لن يشعر بذلك سواك، ستصاب بحالة من الذعر وتشعر بأن أحدهم يحاول قتلك بالرغم من أنك أوقفت تنفسك بإرادتك، ستستنشق الهواء رغما عنك، ستجد الهواء يعبر كل الحواجز ويمر إلى جهازك التنفسي.

- لقد أعطيتها مخدر ستنام لعدة ساعات حتى تهدأ.
- ما الذي أصابها؟
- لا أدري حقا، إن الأمر معقد، أريدك الآن أن تقصي علّي كل ما حدث بالتفصيل.

تتابعت زيارات الطبيب لمنزل كاميليا التي رفضت أن تذهب ابنتها للمشفى، لكن لم يحدث أي تحسن في حالتها، فقد ساءت الأمور أكثر، توقفت عن الحديث ولم تعد تفعل شيئا سوى النوم أو البكاء، وعندما بدأت في الحديث مرة أخرى لم تكن تقول شيئا سوى أنها تريد جلال أخاها، لم تستطع والدتها أن تخبرها بأنه لا أخ لها فقط اكتفت بإخبارها بأنه خارج البلاد وسيعود قريبا.

قررت السيدة كاميليا الاتصال بسليم ربما تجد عنده إجابة لتلك الحالة التي وصلت إليها ابنتها، لكن كل ما تلقته كان الهاتف الذي طلبته ربما يكون مغلقا!

لم تر سليم منذ حفل توقيع رواية حياة، ولا تدري كيف تسير علاقتهما، لكن لم لَا يسأل عنها؟! هل هما متخاصمان؟! هل حقا ألحق الضرر بابنتها؟!

وبينما تحاول الاتصال بسليم للمرة المائة تقريبا، دق الباب، ليأتي الطبيب، ليته جاء بجديد.

استيقظت من نومها تشعر برأسها يكاد ينقسم نصفين، المخدر يثقل رأسها والأفكار تشتته، قامت تتحسس كل ما يقابلها تستند على الحائط حتى وصلت لباب الغرفة لتأتيها أصوات من الخارج، وكأي شخص يستشعر الخطر وتلعب برأسه الظنون وقفت تستمع لما يقال.

إنه الطبيب يحدث أمها، يخبرها أنه لا مجال للعلاج سوى دخولها مصح نفسي، ستبقى حبيسته لسنوات أو ربما يمتد الأمر لبقية عمرها.

شعرت بالاختناق، الخوف يملأ كيانها والرعب يتملكها، لا تريد الذهاب إلى أي مكان، تريد فقط الحقيقة، أو أنها لا تريد الحقيقة، إنها تريد ما تظنه حقيقة، ما اعتادت عليه حقيقة، فلتكن من تكن لكنها تريد أن تشعر بأنها هذا الشخص حقا!

اقتربت الخطوات من غرفتها، عادت مسرعة إلى سريرها وتكورت على نفسها، هي ليست مجنونة، تعلم ذلك، يمكنها التحقق إن كانت مجنونة أو لا، وإن كانت كذلك فلا تريد علاجا سبيله الوحيد هو السجن.

يجب أن تفكر بسرعة، فليتوقف المخدر عن العمل، ولتتوقف جميع الأفكار، سوى فكرة الخلاص.

دخلت والدتها والحزن يبدو على محياها، اقتربت منها بحذر، تماما كما تفعل مع مجنون تخشى أذاه، ابتسمت وكأنها تخبرها أنها ليست كائن مؤذٍ هي فقط ابنتها.

طبعت أمها قبلة على جبينها ثم أخذتها في حضنها، والدموع تبلل خديها، أراد الطبيب اختصار الوقت والجهد، فقرر هو توضيح الأمور عوضا عن أمها.

- كيف حالك اليوم آنسة حياة؟؟

علمت جيدا أنه لا يناديها بهذا الاسم إلا رغبة في إثبات جنونها، كي تصيح وتصرخ كما كانت تفعل في الأيام الماضية، لكنها قررت أن تكسبه بعضا من هذا الجنون والذي تعلم جيدا أنه يمتلك بعضه، إن لم يكن الكثير منه.

- بخير.

كلمة واحدة لكنها ستحيره، ستجعله يدور حول نفسه ويتساءل، ستجبره على الاعتراف بجنونه، لم تمتلك شيئا طوال حياتها سوى الكلمات فلتتلاعب به بما تملك، فلتستغل الحروف كما يجب.

نظر كل من الطبيب ووالدتها لبعضهما البعض، ثم عادت والدتها لتقبيلها من جديد وكأنها استردت ابنتها أخيرا.

تنحنح الطبيب وصمت قليلا، ثم قرر أن يكمل ما بدأ.

- هل يمكننا التحدث قليلا.
- بالطبع.

ستجيبه بكلمة واحدة، كلمة مختصرة تجعله يحتار أكثر.

- أحم.. أ.. حسنا، ما هو اسمك؟!
- لقد ناديتني به توا ألا تعرفه؟!

يصمت قليلا يفكر، ثم يعيد سؤاله بطريق أخرى.

- أريد أن أعرفه كاملا.

تصمت هي الأخرى، هل تنتهي تلك المسرحية وتواجههما، هل تقول لست حياة، هل ترجو والدتها كي لا ترسلها للمشفى.

قامت من السرير وتوجهت إلى حيث تضع الأوراق وأخرجت الهوية الوحيدة التي تملكها الآن ثم ناولته إياها.

(22)

"وعندما خرج من سجنه ظل يصرخ أن أعيدوني ثم مات مختنقا بالهواء!"

انتظرت حتى نام الجميع، ارتدت ملابسها، أمسكت بحجابها ونظرت له في حيرة، الآن لها الحرية في عدم ارتدائه، هي لم ترغب به يوما أرغمها أبوها على ارتدائه ومن بعده زوجها، وجدت نفسها ترتديه دون إرادة منها، هل اعتادته؟ هل تخشى أن تخلعه؟ أم أنها أرادت أن تثبت أنها حليمة! لا تدري، ربما كل هذا.

ذهبت إلى منزلها، تشعر أنها ستجد سليم بانتظارها هناك، لا تدري لِمَ يسأل عنها ولو مرة، وكيف يسأل وهو يتهمها بالخيانة؟ تقترب من الباب بخوف، وضعت المفتاح وأدارت المقبض لينفتح الباب.

الشقة يكسوها الظلام، تحسست الحائط حتى وصلت لزر الإضاءة.

سليم ليس بالمنزل ولا أثر يدل على أنه كان هنا يوما، بالتأكيد أخذ معه كل حاجياته قبل الرحيل، أخذت تتجول في الشقة، تشعر ببعض الغربة وكأن بعض الأثاث مكانه تغير، تمر برأسها لقطات سريعة.

هي تقف أمام المرآة، تدخل سيدة وتخبرها أن سليم ينتظرها بالخارج، من هذه المرأة؟! لقطة أخرى لهذه المرأة وأخرى وأخرى، لقد كانت تعيش معها! كيف لا تتذكر هذا؟؟

تشعر بأن رأسها يتصدع، دوار غريب يعتريها والكثير من المشاهد والمشاهد تتداخل في رأسها، الأصوات تتعالى، ضوضاء، زحام، "الحقيقة كاذبة".

"الحقيقة كاذبة"

- آاااه، تصرخ من الألم ثم تقع مغشيا عليها.

لا تعرف كم بقيت هكذا، لكنها بدأت تفيق بعد مدة لتجد ملابسها مبللة، تنظر حولها في بلادة هل سكب أحدهم الماء فوقها؟ تستعيد وعيها بالكامل لتدرك أنها غارقة في ملوحة عرقها ودموعها.

تجر قدميها لتنهض، ثم تلقي بثقل جسدها فوق الأريكة، عدة ساعات أخرى مرت وهي نائمة.

قامت من نومها مع شروق الشمس، أخذت حماما دافئا ناشدةً بعض الاستجمام وصفاء الذهن، فهي دوما ما اعتادت أن تتوارد الأفكار إلى رأسها وهي تستحم!

تستطيع أن تجزم أنها في مشكلة الآن، بل مصيبة، كل ما يحدث معها يدل على أنها بدأت تفقد عقلها، هل تعود للطبيب وتخبره بأنه محق؟ بأنها مجنونة وتحتاج لعلاج.

لا، لن تجعلهم يلقون بها في مشفى، كما أنها لا تشعر بالثقة تجاه هذا الطبيب أو حتى والدتها!

يجب أن تبحث عن إجابة لتساؤلاتها.

فكرت قليلا، ثم أمسكت بهاتفها.

- كيف حالك؟ ... بخير.
- أريد أن أراكِ... حسنا في منزلي... أنتظرك.

جاءت حسناء بعد حوالي الساعة.

ألقت بنفسها في أحضان حسناء التي أصابها القلق.

- ما بكِ حبيبتي؟؟ هل حدث شيء؟
- هناك شيء يحدث معي ولا أفهمه، أنا لا أثق بأحد غيرك، أحتاج مساعدتك.

- بالطبع، أطلبي ما تشائين.
- سأسألك سؤلا وأرجوكِ لا تتعجبي من سؤالي أو تستنكريه.
- لك ما طلبتِ، ماذا هناك؟
- من أنا؟؟
- إذًا من حليمة؟؟
- حياة حبيبتي فلتهدأي، حليمة هي صديقة دراستنا ألا تتذكرينها؟! لقد توفيت منذ أكثر من عشر سنوات!
- ماتت! كيف؟!

بدأت حسناء تبكي.

- انتحرت.
- لماذا؟؟ لماذا انتحرت؟
- لا أحد يعرف، لكنها لم تكن سعيدة.

كانت تشعر بأنها وقعت في أعماق بحر مظلم ولا تستطيع الخروج، لا ترى شيئا، ولا تعرف له آخر، فهل ثمة نجاة؟!

قالت من بين ذهولها:

- أريد أن ألتقي سليم، أين يمكن أن أجده الآن؟

انهمرت دموع حسناء وأطرقت رأسها في حزن.

قالت وهي تحاول إنكار ما فهمته:

- أين هو؟ أخبريني، أرجوك.

- لقد... لقد توفي بعد وفاة حليمة بعامين، لم يكن سليم سيئا لهذه الدرجة، فلم أر رجلا حزن لفراق زوجته كما حزن سليم، كانت حليمة تظن بأنه لا يحبها، وكثيرا ما قالت أنه يخونها، التقيته أنا وخالد زوجي في العزاء.

أتذكر ما قاله لي يومها بالحرف:

"أعرف جيدا أنكِ تظنين بأنني خائن كما كانت تظن حليمة، لكن يشهد الله أنني ما خنتها يوما، وما أحببت أو حتى رأت عيني غيرها امرأة، أعترف بأنني فعلت الكثير من التصرفات التي كانت محل شك من زوجتي، أشياء جعلتها تعتقد بأنني أخونها، كانت تعتقد بأنني لا أهتم بها وبما تكتبه، تظن أنني خدعتها وأخبرتها بأنني أهتم كثيرا بكتابتها فقط كي أتزوجها، لكنها لا تعرف أني ما تركت حرفا كتبته إلا وقرأته، عرفت مما كتبته كم تحبه وتتمناه إلى جوارها بقية العمر، قرأت في سطورها كما كنت أقرأ في عينيها كم تشتاق إليه وتريده، هل تظنين أنني شككت فيها أو اتهمتها يوما بالخيانة؟ والله ما حدث هذا، بقدر حبي لها تفهمت حبها له، لكنني لم أتقبله، عشت معها سنوات من الألم لكنني ما استطعت فراقها، وما تخيلتها يوما في أحضان رجل آخر، بعد زواجنا بفترة اكتشفت بأنني أعاني من سرطان الرئة، عانيت في صمت، تألمت دون أن تنزل مني دمعة واحدة أمامها، فحبي لها فاق احتمالي مشاركتها الألم، وحبها له فاق قدرتها على التألم لأجلي!

تبدلت أحوالي، صرت أقضي الكثير من الوقت خارج المنزل من أجل العلاج الذي يمتص ما بقي من طاقة في جسدي فأعود إليها محملا بتعبي، مثقلا بهمي فتظن بي الظنون وتتوهم أنني كنت برفقة امرأة.

لم أكن خائنا صدقيني، ولم أحب أحدا يوما كما أحببتها!"

هل كانت تبكي؟ تنتحب؟ لا تعرف، لكنها تعرف أنها الآن حليمة كانت أو حياة أو أي شخص فقط تريد لو يعود الزمن وتلقاه ولو مرة!

(23)

إن القرارات التي نتخذها وقت الغضب أو وقت الخوف أو وقت الحزن أو وقت السعادة هي مجرد قرارات سطحية لن تجدي نفعا لتبديد الغضب أو للقضاء على الخوف أو لقهر الحزن أو لتمديد السعادة، كلها قرارات زائفة لكن لابد من اتخاذها على كل حال.

فهي تشعرنا براحة ولو كانت مؤقتة ولو كانت غير حقيقية مجرد غطاء للحالة التي نمر بها الآن، فنحن حين نغضب من أحدهم ونقرر أننا لن نحادثه مرة أخرى أننا سنقطع كل ما تبقى من صلتنا به وسنقضي على أي شيء يربطنا به، نشعر بأننا أرضينا هذا الغضب وبأننا استجبنا له كما ينبغي دون أن نكسر أو نحطم شيئا ما، بالرغم من تمام معرفتنا أن هذا لن يحدث وأن هذا ليس ما نرغب به فعلا، حين يشتد بنا الخوف فنقرر للحظة أننا سنواجه ما نخشاه وسنتصدى له نشعر لذات اللحظة بالقوة والشجاعة لكن كيف سنواجه لا نعلم، فهل سنواجه من الأساس؟!

الحال في الحزن كما هي الحال في السعادة كلاهما إن زاد عن حده أفقدنا صوابنا وشل عقلنا عن العمل، نرغب في التخلص من الحزن فلا نستطيع نبدأ بمقاومته فيغلبنا إلى أن نستسلم له في النهاية، يصبح رفيقا لا يمكن الاستغناء عنه، رفيق يدس السم لصاحبه كل يوم وهو يعلم لكنه لا يريد مواجهته حتى لا يخسره ويصبح وحيدا ولو كان هذا الصديق سيقتله.

خرج سليم خلف زوجته التي لا تستجيب لندائه، هو يراقبها منذ فترة، بدت تصرفاتها غريبة عليه، لم يعتد منها مثل هذه التصرفات، من الخروج المتكرر والغياب لساعات طويلة خارج المنزل، شرودها الدائم وأحلامها المزعجة التي لا تنفك تصيبها، وتوقظه في منتصف الليل مفزوعا على إثر صوتها الباكي، وآهاتها المختنقة، حاول أن يتحدث إليها أن يفهم السبب، لكن دون جدوى، يشعر بأنها تغيرت كثيرا، يكاد يجزم أنها تعيش في مكان آخر، وما يراه أمامه الآن ما هو

إلا بقايا جسد، لم يستطع الرحيل مع روحها الممزقة، هل تحب شخصا آخر؟ هل هي على علاقة بأحدهم؟

دقت هذه الأسئلة في رأسه، أصابته الغيرة بنيرانها، وتعالت صيحات كبرياؤه، قرر أن يراقبها.

اتجه خلفها مسرع الخطى، يريد أن يلحق بها ويغطيها، كيف تخرج دون حجابها؟ هل أصابها الفجر؟ أم بلغ منها الجنون ما يجعل تصرفاتها خارج نطاق الحساب؟

سيصفعها على وجهها، سيجعلها تستفيق وتعود إلى صوابها الذي فقدته منذ زمن، بالتأكيد لعب برأسها ذاك الطبيب، أو تلاعبت بها تلك الكتب التي تقرأها، سيعيد إليها رشدها، ثم يعود لمحاسبة هذا الطبيب.

هو الذي لم يحاول فعل أي شيء قد يؤذيها منذ زواجهما، لم يفعل أي شيء قد يجرحها ولو تطلب هذا أن ينجرح هو في كل لحظة، ربما لهذا السبب بالتحديد كان زواجهما فاشلا، ربما توجب عليه أن يجرحها ولو مرة، أن يفعل شيئا يريده هو مرة وإن كانت لا تريده، إن الحرص الشديد يوقع ما نخشاه دوما.

لو حملت صينية مليئة بأكواب زجاجية لتسير بها فأمسكتها جيدا وظللت ناظرا إليها طوال المسافة، لا تستطيع رفع عينيك عنها حتى لا تسقط، لوجدت يديك تهتز وترتعش وعينيك تزوغان وسيزيد احتمال سقوطها مع كل خطوة تخطوها ومع كل درجة تزيدها في الحرص.

إن رغبتنا في حماية علاقتنا مع من نحب قد تكون هي السبب الرئيسي الذي يدمر تلك العلاقة، يجب علينا ألا نفرط في الحرص على الأشياء كما يجب علينا تماما ألا نفرط في حبها؛ لأن ذلك الحب سيكون سبب تدميرها.

أكان حبه لها هو ما أوصلها لتلك الحال؟

أكان حرصه عليها وخوفه من فقدانها هما سبب خسارتها؟

لم يعد يعلم كيف يتعامل معها، كيف يسترجعها إلى ما كانت عليه ولو كان يكرهه، ربما كان يفسر هذا الحب بصورة لا تمثل الحب، ربما إفراطه تحول إلى النقيض، لكنها لم تكن من ذلك النوع الذي يقبل بالقليل، لم تكن لترتضي بالوسط بالرغم من أنها كانت زاهدة في الكثير ناقمة على القليل!

هل كانت هي السبب؟! رغبتها في أشياء غير موجودة ولم تكن لتوجد يوما؟!

تظن بأنها كاتبة ناجحة، بأنه يجب قراءة كل ما تكتب، وبأن الزمن يجب أن يتوقف عندما تفكر ويمنحها الفرصة لتخرج أفكارها وبأن كتاباتها يجب أن تعجب الجميع بلا استثناء، كنت أنا القارئ والزمن، كنت أيضا الجميع لكنها لم تكتف، لم ترض أبدا ولم ترفض أبدا!

ليتها رفضت صرخت منذ زمن وقالت لا أريد أو ليتها فقط ارتضت بما قدمت، لأنني قدمت كل ما أملك.

كان هو ملاذها من كل هذا، راسلته وهي تظن أنني لا أعلم، الشيء الغريب حقا أنني تظاهرت أني لا أعلم، طلبت منه أن يجيبها، طلبت منه أن يمدح ما كتبت بالرغم من أنه لم يعجب بحرف واحد، تطورت علاقتهما، تحسنت كتابتها قرأتها كلها. كلها تتحدث عنه لكنها أفضل ما كتبت، عندما قابلته عرفت تحديدا ماذا تريد، عرفت كيف ترفض كل ما هو كثير وترتضي بأقل القليل، أقل القليل الذي رفضها في النهاية!

عندما راسلته للمرة الأخيرة طالبا منه نشر روايتها ضحك كثيرا، نعم هي موهوبة لكن ليس لتلك الدرجة!

كدت اسأله لأي درجة هي موهوبة؟! لأي شيء تصلح؟ لكنني كنت أعرف الإجابة دون الحاجة لطرح الأسئلة، دون الحاجة إلى التخلي عن ما تبقى من كرامة، في هذه اللحظة بالذات قررت التخلي عن كل شيء لأحفظ هذه البقايا، سأفعل ما يتوجب علي فعله، سأدفن كل شعور في حياتي لأحيي شعور واحد، شعوري بالكرامة، شعوري بالرجولة، لم تتبق لي الفرصة

لاتخاذ أي قرار آخر، سيكون الرحيل هو قراري الوحيد الذي أتخذه بكل كرامة، القرار الذي سيعذبني للأبد والذي لن يرضيني سواه الآن.

(24)

"ولا تعلم أكانت المشكلة أنك استسلمت في النهاية أم أنك من البداية قاومت"

توجهت حليمة إلى منزل والدتها مرة أخرى، أخذتها في أحضانها، واجهشت ببكاء مرير، فيما كانت حليمة ساكنة هادئة، أبعدتها والدتها ووضعت وجهها بين كفيها.

- ما بكِ حبيبتي؟
- أمي أريد دخول المشفى.

في المشفى لم ترفض أن ينادونها باسم حياة، تتناول الأدوية، وتحضر جلسات العلاج مع طبيبها، وتتحدث مع والدتها عن حياتها التي لا تعرف عنها شيئا بعدما رأى الطبيب أن ذلك يساعدها، كانت والدتها تسجل كل حديثهما معها بطلب من الطبيب وتعرضه عليه بعد ذلك.

حكت لها تفاصيلها منذ ولادتها، حاولت تقبلها، حاولت تصديقها، لم يكن لها أخ، لم يكن والدها سيئا، لقد أحبها كثيرا، أحبها لدرجة جعلته يتوفى بعد تركها المنزل ورفضها البقاء معهما بفترة قصيرة، تقدم سليم أكثر من مرة لخطبتها، لكنها تعنتت في الرفض، لم ييأس، لم يرحل، بقي بقربها، ساعدها لتحقيق حلمها، وقف إلى جوارها حتى أكملت روايتها ونشرتها، لكنها لم تكن تحبه، لقد أغرمت بآخر.

أحبت عمران لدرجة أعمتها عن كل ما حولها، جعلتها تهين سليم وتجرحه في رجولته أمام الجميع، صبر وانتظر حتى رآها تبادله القُبل يوما، فرحل.

- حاولت أن أتصل به بعد دخولك المشفى في المرة الأولى لأفهم منه ما حدث بعد أن أخبرتِني بأنه قام بضربك، لكن هاتفه كان مغلقا.

قالت بلهفة.

- ألم يمت سليم؟ هل مازال حيا؟ سليم ما زال على قيد الحياة!
- أجل حبيبتي.
- كيف؟ لقد أخبرتني حسناء أنه مات.
- حسناء من؟!
- حسناء صديقة طفولتي وزوجة الطبيب خالد.
- ....
- أين هو؟ أريد رؤيته، أمي أرجوكِ. قالتها وهي تبكي.

صمتت والدتها، فهي لأول مرة ترى ابنتها منذ زمن تتخلى عن صمتها، تترك لا مبالاتها وتتفاعل معها.

– حسنا حبيبتي سأحاول الاتصال به.

وقفت لأول مرة بعد دخولها المشفى أمام المرآة، تنظر في وجهها، تمعن النظر، تحاول التعرف على هذا المسخ الذي تراه ماثلا أمامها، تجد صورة تنظر إليها بحدة، تكاد من شدة غضبها وحقدها أن تلكمها في وجهها، تمد يدها خارج حدود المرآة، تصفعها بشدة، تتألم، لكنها لا تبعد وجهها بل تنتظر الصفعة الثانية بلهفة وشوق لا مثيل لهما، تقترب من المرآة أكثر، تقرب وجهها حتى تصبح عيناها في مواجهة عينين حمراوين، تلتصق بالمرآة فلا ترى شيئا، تغمض عينيها فترى سوادا معتما، من بعيد ضوء خفيض، يقترب منها، تضع يدها على عينيها في محاولة منها لتخفيف حدة الضوء، لكنه لم يخف بل ازداد وضوحا و شدة، وقعت أرضا ممسكة رأسها من الألم، حاولت فتح عينيها لكنهما كانتا ملتصقتان، أمسكت أحد الجفنين بيد والآخر بيدها الأخرى وحاولت تفرقتهما لكنهما كانا كتوأم ملتصق أبى الفراق حتى لو سيتسبب هذا لهما بحياة صعبة، بل مستحيلة!

استسلمت لكل ما يحدث، تذكرت كلمات تلك المرأة، ربما كل ما يحدث الآن ليس سوى حلما وستفيق قريبا، حتما حلم وإلا لم لَا تستطيع فتح عينيها؟!!

- الحقيقة كاذبة.

جاءها الصوت الذي ألفته، بل كانت تنتظره هذه المرة وتتوقع قدومه، انتظرت ظهور المرأة، متلهفة لها أكثر من أي مرة مضت.

رأت نفسها تقف في الهواء، لا تدري كيف، حركت قدميها تتحسس ما أسفلها لكنها لم تشعر بشيء إطلاقا، لا شيء تحت قدميها ولا شيء حولها أو حتى فوقها، ظهرت المرأة.

تطلعت أول ما تطلعت إلى قدميها العاريتين، لتجد أنها تقف أيضا بدون حذاء.

بدأت الحديث.

- أين نحن؟
- وهل يهم؟
- الحقيقة كاذبة! قالتها حليمة أو حياة فما عاد يعنيها الاسم في شيء أليست كلها أسماء كاذبة.

قالت المرأة:

- الآن، الآن فقط يمكنك الاختيار، وحدك من بيدها القرار، أنت هنا في اللاشيء، يمكنك البقاء هنا، يمكنك قضاء الباقي من عمرك في اللامكان، حيث ستكونين لا أحد، ويمكنك البدء من جديد إذا أردتِ أنتِ ذلك، سيزول كل هذا.
- وهل يزول الفراغ؟ وإن كان يختفي فكيف يختفي ما لا يظهر أساسا؟
- هل ترين ذاك الضوء البعيد؟
- أجل.
- هل تستطيعين النظر إليه مباشرة؟ هل سترين شيئا وقتها؟
- لا.

- هكذا هو الفراغ وأنتِ بداخله لن ترين شيئا، هكذا هي أنتِ، نفسك التي لا تعرفين، تلك التي تبعدين منها فلا ترينها كما يجب، أو تتعمقي في داخلها فتري أدق التفاصيل التي لن تصنع صورة مكتملة أبدا ما دمتي بداخلها.

- إذًا متى يمكنني أن أراها جيدا؟

- كوني في المنتصف، لا تبتعدين فلا ترين شيئا، ولا تقتربين فترين أكثر مما يجب.

قالت المرأة كلماتها ثم اختفت.

لم تناهِا هذه المرة، لم تستبِقها، لم تعد تدهشها أو تخيفها، فقد أصبحت تراها كما يجب!

(25)

على حافة الانهيار بعقلٍ فقد قدرته على العمل وخاصمه الإدراك بعد أن عصفت به الهلاوس، نامت حليمة نامت ولأول مرة ترى سوادا لا شيء فيه أبدا، ولا أثر حتى لذاتها داخله، تدري بأنها الآن مقسمة إلى أجزاء صغيرة، كل جزء يكره الآخر، كل جزء يريد أن يؤذي الآخر أن يوسعه ضربا، بينما ينتظر الجزء الآخر هذا الضرب بفارغ الصبر. تتناثر أجزاءها في كل حدب وصوب، كجثة تم حرقها ونثر رمادها كما كانوا يفعلون في أقصى الشرق! وبقدر ما يكره هذا الرماد بعضه ويرغب في الخلاص من ارتباطه إلا أنه يجوب الأرض كلها بحثا عن باقيه، ولا يهدأ أو يستكين قبل أن يجتمع ببعضه.

استسلمت لكل ما يحدث معها، تركت الرماد يتناثر، لم تقل لهم "ليس لكم سوى بعضكم البعض، فأنا سأرحل ولن تجدون من يضمكم كما كنت أفعل" لكنها تركتهم يتعرفون على كل هذا بمفردهم، تركت الشوق يحركهم لا الواجب، فقد سأمت تلك المرحلة وضاقت هذه المرحلة بها ذرعا فلن تعود إليها حتى لو أرادت!

استمر نومها عدة أيام حاول الأطباء إفاقتها لكنهم فشلوا، قالوا أن كل مؤشراتها الحيوية طبيعية، كل الفحوصات، كل الأجهزة تؤكد بأن صحتها جيدة، كل شيء يشير إلى أنها فقط نائمة. أطلقوا على نومها لقب غيبوبة، حتى يستسيغوه ويصدقوه، استمرت في نومها أو غيبوبتها ما يقرب من الأسبوع، فتحت عينيها اتسعت ابتسامتها، فلأول مرة تنام دون أن ترى شيئا، لأول مرة تنام بهدوء، ولأول مرة تستيقظ هانئة البال خالية من الخوف والفزع.

اجتمعت أجزاؤها الصغيرة، تركبت بشكل مبهر وكأنها لم تتفتت أبدا، في تناسق عجيب أصبحت، وكأن كل ما مضى لم يكن سوى فكرة مرت على رأسها وطردتها سريعا دون أن توليها

اهتمام، مجرد حلم استيقظت وهي لا تتذكر منه شيئا فمر مرور الكرام، لم تكن تعرف من هي، لكنها أصبحت تعرف جيدا ماذا تريد.

بعد إفاقتها بعدة أيام كانت تجلس بصحبة روايتها التي كتبتها والتي تقرأها لأول مرة، تقرأ كل حرف تتشربه وتجعله يتخللها، تنحشر الحروف في تلك الفجوات الصغيرة الساكنة بين أجزائها فتزيد من الالتصاق بينهم، لم تكن الأحداث عليها جديدة فكل ما كتبته لم يكن إلا هي، حياتها التي لا تذكر سواها لم تكن سوى أحداث رواية كتبتها بنفسها.

عجيب حقًا أن تكتب قصتك بيديك، لكن الأعجب ألا تعجبك القصة، والأعجب أن تقنع ذاتك بأنك أرغمت عليها، بل الأغرب من كل هذا أن تأتيك الفرصة لتغير كل ما تكره لكنك ترفض وتتمسك بتلك القصة ولا ترضى سواها بديلا!

تقبلت حليمة اسمها الجديد، تقبلت وضعها الجديد، حياتها الجديدة، كل شيء جديد، ما لم تتقبله كان ماضيها الذي تجهله والذي هو حقيقتها الوحيدة، فهي ما زالت مقتنعة أنها لم تكن يوما سوى حليمة، ربما هي الآن حياة الإمام، باختيارها أو دونه هي حياة، راضية هي الآن عن هذا لكنها الآن فقط أصبحت حياة جديدة غير التي أخبروها عنها تلك الغريبة التي لا تعرفها والتي ما كانتها يوما، هي شخص جديد الآن فقط وُلد وسيبدأ كل شيء من جديد.

خرجت من المشفى، عادت لبيت والدتها التي فرحت كثيرا بعودتها، لم تكن راغبة في العيش بمفردها، تمنت لو يعود سليم لكنها توقفت عن أمنيتها بعد أن علمت أن حتى لقاءها بحسناء لم يكن إلا داخل نطاق عقلها، وبأن كل ما ذكرته عنه لم يكن صحيحا، فقد أسمعت والدتها طبيبها التسجيل الصوتي الذي يحتوي على حديثها عن حسناء ليؤكد لها أن زوجته لا تدعى حسناء، ومن ثم تبحث والدتها عن حسناء لتجد أنها هاجرت برفقة زوجها منذ سنوات ولم تعد من وقتها، صدقتهم حليمةلكن جزءً داخلها من تلك الأجزاء الكثيرة ما زال مقتنعا بكلام حسناء، وجزءً آخر ما زال ينتظر عودة سليم!

(26)

"كيف يمكن لشيء بهذا الصغر أن يترك كل هذا الحيز من الفراغ."

مرت عدة أشهر قضاها سجينا بين الأوراق، ضاع قلمها الذي وبالرغم نفاد حبره آلاف المرات لم يتخل عنه واستمر في إمداده بالحبر، يحيي ذكراها به.

عاش في قفصه محروما من الأوراق، انقضى عمره في الانتظار وعندما جاءته الفرصة لكي يلامس الورق كان قد ضل الطريق إليه!

أجزم وتأكد بأنه لا يستطيع الكتابة لغيرها، لا يستطيع أن يجبر أوراقه على زواج غير شرعي بأي قلم آخر إلا قلمها ذاك الذي تعشقه وتنتظره، ذاك الذي رفضت الاستجابة لمحاولات الأقلام التي سبقته، وبقيت كما هي عذراء منتظرة عودته إليها وإن طالت.

آمن هو بأن الغياب مهما طال لابد من عودة، وبأن الانتظار هو تذكرة الرجوع دوما، يكفينا أن نعرف أن أحدهم ما زال بانتظارنا فنحزم حقائبنا ونقطع الطرقات ركضا من أجل العودة.

علم جيدا أن بعض الذكريات لا ترضى إلا أن نبقى سجناءها، إما أن نسجن داخل قفصها نعيش فيها ونرويها بدموعنا نبث فيها من أرواحنا حتى تستمر، أو أننا ندفن فيها فنبلى مًعا ونرحل مًعا فلا ثمة مجال للافتراق عنها هنا.

لم يحاول معاودة الاتصال بها منذ آخر مرة صرخت فيه بوجهه قائلة "لا أريدك"

يرغب بشدة لو يحدثها الآن لكنه حقا لا يدري هل سيحدثها عن مدى اشتياقه، عن مقدار حبه ولهفته وفشله في كل المحاولات اللاحقة لتجربته معها، يقص عليها رسوبه في كل الاختبارات وهروبه من كل الفرص المقدمة على أطباق من ذهب كي تبقى ذكراها هي الذكرى الوحيدة، والألم الأوحد والأعظم والأجمل، أم يطلعها على الجانب الآخر ذلك الذي يغلي داخله، يمزقه إربا، يحوله إلى كتلة من الحقد والكراهية، كتلة سوداء كريهة الرائحة، ما شذاها إلا عطرك الذي احترق بداخله، هل يلعنك ويسبك؟ يعذبك؟ يقتلك؟؟

هل يأخذك بين أحضانه ويضمك كضلع من أضلعه غاب كثيرا وحان وقت عودته ليقف بجوار إخوته فما بقيت لديهم قوة الوقوف دونه.

عذابك الجميل وألمك الممتع، حقيقتك البشعة وكذبك الساحر، كل هذه الأشياء هي ما أبقته حياً حتى اليوم، حياً بنصف عقل ترك نصفه الآخر لديك، دون قلب تركه يدق جوار أذنك، بل تركه ملتصقا متحدًا بقلبك حتى يأتيكِ نبضهما واحدٌ فتشعرين به، لكن آنى لك بالشعور وقد وضعتِ جبلا من ثلج غلفتي به قلبك وأصاب الثلج قلبي ليتجمد في صدرك فلا تشعرين به أبدا.

حاولتُ العيش بنصف عقل، وكان يمكنني ذلك لولا أن هذا النصف كان يفكر بك، بل كان لا يفكر إلا بك.

كلما أجبرته على التفكير بأخرى، كلما اقتربت أخرى منه ولو بضع سنتيمترات كان يبتعد دون تفكير، وكأن أي اقتراب لأنثى في محيطه خيانة لنصفه الثاني الذي يبيت في أحضانك، على نفس الوسادة يشارك عقلك ويشاركهما كتلة أخرى هي عقل كامل فضلتيه على النصف، لكن أكان هذا العقل كله لك؟! ما أظن هذا.

الآن أعلم جيدا أنه لا مفر منك إلا إليك، وأدرك أن السبيل إليك موصدا بألف ألف عام من الأقفال، وبأنك لا تلتفتين خلفك، وكيف وأنت حتى لا تلتفتين جوارك.

رحل عمران ولم يعد، وما كانت العودة ذات قلب كبير لتقبل به، وما كانت ستسامحه على مرات رحيله.

حزم حقائبه، لم ينس وضع وفائه إليها، وحبه لها، لم ينس وضع قلمها، الشيء الوحيد الباقي منها، لحق به حزنه ركضا يحثه الألم لكي يسرع الخطى، لم يستطع إلا أن يتوقف ويفتح ذراعيه على وسعهما ليضمهما معا مجتمعين بوحدته تلك الطفلة الصغيرة التي تتشبث بذراعه، رحل بصحبه أصدقائه القدامى، إلى حيث يوجد بحر، إلى حيث يوجد مطر.

(27)

ذاكرتنا تتلاعب بنا، تذكرنا بهم وتتناسى سبيل العودة، ربما عن عمد وربما تعرف الأصلح لنا، وربما تخشى علينا من ألم محتم، لا نلقي له بالاً لأن الشوق يعمينا عن عمق الألم المنتظر.

عدة أشهر كانت ما قضاه سليم بعيدا عنها، منذ رآها آخر مرة برفقة عمران، في أحضانه، وشفتاها بين شفتيه.

مرت عليه سنوات طوال يمزقه شوقه من جهة ويصرخ كبرياؤه مستغيثا من الجهة الأخرى، يتصارعان فينجح الكبرياء في الأيام الأولى، ثم ما يلبث الشوق أن ينتصر ويهزمهما معًا هو وكبرياؤه. ويأتي الألم حليفه الجديد ليحتفل معه بهذا الانتصار على مقابر قلبه التي تحترق اشتياقا وتتمزق ألما، ويتوسلها الكبرياء بألا تخرج هذا القلب منها خوفا عليه لكنها تلفظه خارج أحشائها طفلا ضاقت ذرعا بحمله كل هذه المدة وهو لا يكف عن الصراخ رغبة في الخروج، ولا يتوقف بكاؤه خوفا منه.

لم يكن حب سليم لها مجرد حبا عاديا، كان مغلفا بالألم في أبهى صوره، وربما هذا هو سبب قوته وقدرته الهائلة على البقاء راسخا في أعماقه المعذبة.

للموت رهبة تفوق كل المشاعر الأخرى وتسحقها تحت قدميها ثم تنظر إليها بازدراء، فكيف لأي شعور إنساني منافسة الموت وما يصاحبه من مشاعر.

إلا حبه لها، وحده وقف صامدا أمام رهبة الموت يتلقى الطعنات في ثبات دون أن يصدر آهة واحدة، تنفجر تحت قدميه قنبلة موقوتة اسمها العمر، فيتلاشى كل شيء آخر حوله ويتبعثر

أشلاءً صغيرة في كل اتجاه غير قادرة على العودة إلى ما كانت عليه، إلا هو لم يتأثر بالقنبلة ولم تحرك فيه ساكنا، نظر تجاه الأشياء كلها ولم يعبأ، فقط إلا بها.

وحدها من استطاعت بعد سنوات من العزلة، وحدها بعد سنوات من الألم الذي خلفه فراق الأحبة وضياع الوطن، أن تفتح قلبه من جديد وتجعل من قلبها موطنه، أو هكذا ظن.

لم يكن الغياب في سبيلها غيابا، لم يكن سوى حضور طاغ لم يستطع الهرب منه، أو التخفي في سرابيل التعود، لم يغفل قلبه عن ذكرها لحظة، ولم يحالفه الحظ ويموت في تلك الفترة قبل أن ينهكه الشوق تماما ويستبد به ألم الغياب، وتعتصره مرارة الحرمان كما لم يعتصره المرض فتباغته أشواقه على حين غفلة كما لم يباغته الموت وتسحبه من رقبته حتى يلقاها.

وقف ببابها وما زال يصارع يده وتصارعه دقات قلبه، حتى انتصرت دقاته ودقت الباب.

(28)

الحب هو ذلك الشعور الذي لا يغيره بعد، ولا تقتله مسافات.

الحب هو أن أحبك الآن وأمس وغدًا، حتى لو لم نلتقي، لو لم نتقابل، ولو لن نرى بعضنا البعض ثانية.

الحب هو ألا أحتاج لإثبات أنني أحبك، حتى لو لم أخبرك.

الحب يعني ألا أنساك مهما افترقنا.

الحب أن تظل صورتك في عيني مهما رأيت من الصور.

الحب هو ألا تطلب مني تبريرًأبدًا، لا تسألني عن سبب ولا تعاتبني مهما بلغت أسباب العتاب.

الحب أن نعفو.

نحن نحب لأننا نحب، ولا لشيء آخر. لا لأننا نتلاقى، ولا لأننا نتحادث.

الحب هو تواصلنا بعد سنوات من الغياب وكأننا لم نفترق إلا البارحة.

الحب هو ألا نحتاج للاعتذار.

كانت مستغرقة في نومها ولأول مرة منذ خروجها من المشفى تحلم، لكنه حلم مختلف عن جميع أحلامها السابقة، حلم غريب عليها لكنه الطبيعي لكل البشر.

استيقظت وهي مبتسمة ولأول مرة في حياتها يدفعها أحد أحلامها للابتسام.

وقفت أمام المرآة لتتأكد من أنها حقا موجودة وهي عادة اكتسبتها مؤخرا، تستيقظ من النوم وتتجه فورا للمرآة خشية أن تفقد ذاتها مرة أخرى، أو أن تتحول لأخرى لا تعرفها.

كم يصعب عليها أن تؤكد على وجودها كل يوم، وأن تنظر للمرآة وهي تتوقع ألا ترى أحدا.

نظرت جيدا، كانت هي بشحمها ولحمها، أنفها الدقيق وأهدابها الطويلة التي تلقي بظلالها على الوجه، عينيها البنية وشفتيها الصغيرتين، شيء واحد كان مختلفا؛ تلك الابتسامة التي تزين وجهها.

ابتسامة تجعلها تظن الواقفة أمامها امرأة أخرى، هل كانت تحب سليم كل هذه المدة دون أن تدري! هل كانت تحبه كل هذا الحب حقا وهي التي بغضته حد الموت في حياتها الوهمية! ونفرت من وجوده في حياتها ورسمت في خيالها صورته كشخص مغتصب لحقوقها وذاتها! كانت تعيش معه مجبرة، وتحترق كل يوم لأنها تضطر البقاء، تنوي الرحيل كل ليلة وفي الصباح تتحول إلى امرأة قعيدة لا تقوى على الحركة، رسمت منه صورة شخص خائن، رسمت منه مخادع كاذب، ثم عاشت في هذا الوهم.

ربما شعورها بالذنب أجبرها على فعل ذلك، وجوده الدائم في حياتها، رغبته الملحة في الزواج منها، مساعدتها بكل ما أوتي من رمق لكي تصبح كاتبة مشهورة، وتقبل جميع إهاناتها في صمت ورضا، كل هذه الأشياء دفعتها لرسم تلك الصورة لكي تريح ضميرها الثائر عليها وتخدره.

ثم ما لبثت أن وضعته في منزلة الملك المنزه عن الخطأ عندما بدأت الحقيقة تتجلى أمامها شيئا فشيئا، جعلت من نفسها شيطانا قتل والده وهجر والدته وعذب سليم، فتصورت ذاك اللقاء الوهمي مع حسناء والذي جعلها تتأجج على جمر مستعر من الأشواق لكي تراه ولو مرة.

هل كان سليم شيطانا حقا؟ وهل كان ملكا منزها؟؟

(29)

"كثيرٌ منا لا يتقن السعادة، وعندما يقف أمامها وجهًا لوجه فهو غالبا يهرب منها مستغيثا بأحزانه السابقة، أو بمخاوفه القادمة"

خرجت من غرفتها ركضًا عندما سمعت صوته، كثيرا ما فعلت، فكم من مرة استيقظت على صوته ثم قامت تبحث عنه ولم تجد سوى مخاوفها من ألا يعود وآمالها في أن يعود!

كانت تلك المرة مختلفة، فبينما كانت تنظر إليه وكأنها تراه للمرة الأولى في حياتها، ترتعش شفتاها ابتسامًا ممتزجًا برجفة الخوف، خائفة من أن يكون كل هذا وهما، أو خيالا من خيالتها الكثيرة، تخشى أن تغلق عينيها أو تزيحهما ولو سنتيمتراً عنه.

توجهت إليه ببطء شديد وعيناها مثبتتان عليه، اقتربت منه، ومدت يديها تتحسس وجهه، إنها تشعر به، تشعر بملمس وجهه، تتجول أصابعها على كل جزء من وجهه تحس لحيته الخفيفة التي ولأول مرة تراها جذابة لهذا الحد! دوما ما أحبت الذقن الحليقة والبشرة الناعمة وكثيرا ما تشاجرت مع سليم في حياتها الخيالية تلك بسبب خشونة لحيته.

كم تشعرها تلك اللحية الآن بالنعومة وتمدها بكامل الحنان الذي شعرت بنقيضه معها من قبل!

تشعر أنها تقترب من شفا الجنون، متناقضات كثيرة تعصف بها، ذكريات متضاربة لشخص كرهته حد الموت، والآن تحبه حد الحياة.

مشاهد تعتصر خلايا عقلها شبه الواعي، تجعله يحترق بلهيب أحداث صنعتها من مخيلتها وصدقتها وعاشتها.

صدق اللحظة الحالية ينتصر أمام كذب اللحظات السابقة يمسك تلك اللحظات من رقبتها ثم يخنقها ويحملها عاليا ويلقي بها من أعلى القمة إلى أسفل القاع في طي النسيان المستحيل، يرفضها النسيان فتحاول لملمة أجزاءها المبتورة وتدخل إلى ممر التناسي الواسع وساحة التجاهل الكبيرة.

الذكريات السيئة لا يمكن أن تكون كذب!

وحدها السعيدة يمكنها الكذب في محاولة منها لإبقاء الأمل بداخلنا، أو لإبقائنا على قيد الحياة ومنعنا من الانتحار الذي يكون في أحيان كثيرة الحل الوحيد، أو المهرب الوحيد، والذي تدفعنا إليه الذكريات السيئة دفعا.

فكيف يصنع العقل ما يعذب نفسه به، وهو ما يلبث أن يهرب من مثيلتها الحقيقية، لم تفكر لحظتها في منطقية الحدوث ولم تفكر في احتمالية عدم الحدوث.

كل ما تفكر به الآن هو شخصٌ تمنت كونه حقيقة واقفا أمامها بشحمه ولحمه.

لا يصدق سليم ما يحدث، إنها أمامه تنظر له تلك النظرة، يداها تضيفان البركة إلى وجهه، وتزيلان من فوقه غبار الألم ومرارة الغربة، تتطاير ذرات التعب، وتتساقط لحظات العذاب واحدة تلو الأخرى، فينسى في لحظة كل سنوات العذاب بقربها، وكل فترات العذاب في البعد عنها.

أحبها بكل ذرة في جسده الذي لم يشعر أنه حي إلا الآن، لم يلتقط أنفاسه بصورة تمكنه من العيش إلا بعدما لمست يديها أنفه فيدخل الهواء دون عناء بعد الآن!

لم ينطق كلاهما بحرف، فقط آهة صدرت منه، وكأنه يخرج بها كل ما مضى، تلتها ضمة قوية تعتصر أضلعها التي استكانت وهدأت في ضمته وبين أحضانه، نبض قلبها يسمع صداه في أرجاء صدره الذي أصبح في اتساع الكون، ولأول مرة تشعر بالأمان ذاك الذي تفتقده منذ دورانها في دوامة عقلها المضطرب، وجنونها الواضح.

لا يدري أحدهما كم طالت مدة بقائه في أحضان الآخر.

اختصرت تلك اللحظات عمرا من الكلمات، و ما أطولها من لحظات!

(30)

"حين يموت شوقي إليك اعلم أنك غبت أكثر من اللازم"

دوما ما يقول الجميع أن الهروب لا يعد حلا في أي وقت، لكنه أحيانا يكون الشيء الوحيد المتاح.

فقد نسلكه لكي نخفف من حدة التورط، ونزيل عن كاهلنا عبء التفكير في أمور نجهل كيفية تغييرها ويصعب علينا تقبلها، أو لكي يريحنا من البحث عن حلول لمشكلات لا نستطيع التعامل معها.

ويبقى السؤال هل تجدي العودة بعد الهروب؟! وهل تجوز الرحمة على من عاد بعد الغياب؟

عاد عمران بعد غياب طال وإن لم يكن بمدته، فبتوقيته، فقد رحل في ذلك الوقت الذي تحتاجه فيه، والمرأة أبدا لا تغفر الغياب غير المبرر، المرأة لا تعفو عن الهروب وقت الاحتياج، ولا تجدي معها عودة بعد انقضاء الشوق، وانقطاع الأمل، وتوقف الانتظار.

المرأة لا يشبعها الحضور المتأخر، ولا يعنيها وجودك الباهت.

خسرها عمران، وكان تردده هو السبب، خوفه الدائم وهروبه المستمر.

عاد ليجدها امرأة متزوجة، تحب زوجها تتمسك به، ولا ترى سواه!

عندما استمد الشجاعة من حبه لها، صدمه واقع أنه ما زال جبانا في نظرها، وأن عودته الآن لا تعنيها، بل هي لا تريد أن تراه.

صوتها ما زال يتردد في أذنيه يقول "لا أريدك"، نظرة عينيها مطبوعة في ذاكرته تقول " لم أعد أحبك"

(0)

"أيتها الحقيقة لا تكوني بوضوح الشمس فتفوقين الليل عتمة"

استيقظت من نومها ودقات قلبها تتسارع معلنة حالة من الفوضى في أنحاء صدرها، دقة هنا يلعو صوتها وأخرى تغار فتتعالى صيحتها أكثر، والثالثة تقرر المقاتلة بشراسة فتلعو أكثر وأكثر، والقلب يستغيث معلنا استسلامه أمامهن جميعا.

عدة مشاهد تمر أمام عينيها، أصوات تتداخل وتختلط.

حليمة..

صوت يناديها، تنظر حولها بفزع.

حياة..

تحاول أن تجيب صوتها لا يخرج.

الدقات تعلن الحرب على بعضها، والصداع يمسك مطرقته ويعلو صوته في الأبواق ليعلن نتيجة المعركة القائمة على حلبة الصدر المشتعل.

أمي لم أفعل شيئا! جلال كسرها.

أبي أرجوك! لا تضربني.

سليم..

سليم توقف.

عمران لا ترحل!

الحقيقة كاذبة!

أرجوكِ كفي عن ملاحقتي!

داخل هذه العلبة وردة وكتاب شعر لأمل دنقل.

أنا أحبك وسأتزوجك.

سليم يخونك!

حليمة انتحرت!

كل هذه هلوسة! أنتِ مريضة! تهذين.

خادمتك تزعجني.

ثرية مربيتي.

لا أدري ما الذي يعجبك فيها.

مربيتك هذه قدماها جميلتان، ناعمتان جدا، كالحرير، لكن لماذا لا ترتدي حذاء؟

أليس لديها ملابس بلون غير الأسود!؟!

تتوقف المعركة، القلب مطروح أرضًا والدقات تحتفل بالانتصار، والعقل قد فارق الحياة!

تفتح عينين جاحظتين.

جسد لا يتحرك وكأنه مومياء محنطة منذ آلاف السنين.

تحاول استجماع بقاياها، تحرك عينيها يميناً و يساراً تقع عيناها على كتاب شعر قديم يرقد في إحدى زوايا الغرفة، تدب الطاقة في قدميها فجأة وتتحرك تجاهه، تمسك به بأيدٍ مرتعشة، تفتحه ببطء شديد، تجد وردة مجففة بداخل أوراقه الصفراء.

يقع الكتاب من بين يديها.

لقد كان موجودا طوال تلك المدة، كيف لم تره إلا الآن؟ كيف لم تتذكره إلا الآن؟!

تنظر حولها تقع عينيها عليه، ذاك الذي كان يرقد طوال الليل بجوارها.

كالمنومة مغناطيسيا تتحرك، لا تشعر بما تفعله، كإنسان آلي ينفذ الأمر.

- صباح الخير، استيقظ، ستتأخر على العمل.
- لن أذهب اليوم، اتركيني أنام.
- لماذا؟!
- لأنهم طردوني.
- ماذا تقول؟!!
- أريد أن أنام.

تمت